كينيث براون

موجز تاريخ سلا

1000 - 1800

ترجمة عن الإنجليزية
محمد حبيدة   أناس لعلو



منشورات أمل

كينيث براون

Kenneth BROWN

موجز تاريخ سلا

1000 - 1800

ترجمة عن الإنجليزية

محمد حبيدة أناس لعلو

منشورات أمل

الكتـــاب : موجز تاريخ سلا

المؤلـــف : كنيث براون

المترجمـان : محمد جيدة وأناس لعلو

النــاشــر : مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع

الطبـــعة : الأولى – الدارالبيضاء

السنـــة : 2001

الإيــداع : القانوني رقم 2000/1717

فهرس

تقديم 5
مقدمة : التاريخ المحلي والتاريخ القومي 7
الفصل الأول : نشأة مدينة إسلامية 19
قيام سلا كمدينة 23
الفصل الثاني : نماء سلا (المرابطون والموحدون) 29
اتساع المدينة 30
قبلة الصلحاء 32
ابن العباس 32
أبو موسى 33
الحياة الاقتصادية 35
الفصل الثالث : العصر الذهبي 39
المرينيون 39
تطور المدينة : العمارة والتجارة 40
ازدهار الثقافة 42
ابن عاشر الطبيب 45
الأولياء والتصوف 47
الفصل الرابع: أصالة سلا 53
رخاء المرسى 54
الصوفية : سيدي عبد الله بن حسون 55

	العياشي والدفاع عن التراب المغربي	59
	الموريسكيون	60
	الصراعات الداخلية للجمهوريات الثلاث	62
الفصل الخامس :	قراصنة سلا	67
	التجارة والرخاء في أفضل مرسى بالمغرب	70
	الطائفة اليهودية بسلا	72
	أحمد حجي المجاهد والولي	75
الفصل السادس :	أهل سلا في القرن الثامن عشر	83
	التضامن الحضري	85
	السلطة المحلية والسلطة المركزية	86
	أفول التجارة	88
	الأزمات : التهديد الأوربي والصراع الداخلي	92
	ثبات صورة	96
خاتمة :	المظهر التاريخي لسلا	101
ملاحق :	ملاحظات حول المؤرخين السلاويين	107
	شالة – سلا – الرباط : مرحلة ما قبل الإسلام	115
بيبليوغرافيا :	مخطوطات	120
	مطبوعات	121

تقديم

حظيت المدن العتيقة في المغرب باهتمام مميز من قبل المؤرخين، الأجانب والمغاربة على السواء. فأبحاث جاك كايي وعبد الإله الفاسي حول الرباط وروجي لوتورنو ومحمد مزين حول فاس وغاسطون دوفيردان حول مراكش وحليمة فرحات حول سبتة، ودراسات جامعية أخرى غير منشورة حول مكناس وتارودانت وأغمات وغيرها حققت تراكما هاما حول المدينة : بنياتها، وظائفها، أهاليها.

وتنخرط حاضرة سلا، هي أيضا ضمن هذا التراكم المزدوج المرجعية. فقد ساهمت تنقيبات الباحثين في كشف المكونات البشرية والأثرية والثقافية التي يزخر بها تاريخ المدينة، في طليعتها عمل الباحث الانجلوسكسوني كنيث برلون حول الثابث والمتحول لدى السلاويين في المرحلة المعاصرة 1830–1930، وبحث جودية حصار بن سليمان، المنجز بالفرنسية بخصوص تاريخ المدينة وأرشيفاتها ومعالمها الأثرية ودراسة العربي واحي، التي لا تزال مرقونة، حول الحاضرة في ظل الحماية.

والعمل الذي نقترح ترجمته ضمن منشورات أمل تحت عنوان : " موجز تاريخ سلا 1000–1800 " لكينيت برلون الصادر بالإنجليزية في مجلة هيسبريس لسنة 1971* يعبر عن رغبتنا الأكيدة لإيصال بعض محتويات هذا التراكم إلى عموم القراء بالعربية على وجه التحديد، من دائرة المتخصصين في قطاع

التاريخ وغير المتخصصين، لما يحمله هذا المسح التاريخي الغني، الممتد على العصرين الوسيط والحديث من أهمية قصوى على مستويات متعددة : الوقائع التاريخية التي عاشتها سلا العلاقات مع الجارة الأبدية الرباط، الامتداد الزمني لظواهر ثقافية ودينية لا تزال تنبض بالحياة إلى اليوم. والواقع أن الدراسة مقاربة لأهل سلا كصورة مصغرة للمجتمع المغربي مقاربة نلمس فيها موضوعية في التعامل مع الأحداث، حسا نقديا في معالجة النصوص ونفحة أنثربولوجية في طرح قضايا أهل سلا وعقلياتهم. فعلى الرغم من مرور ثلاثة عقود من صدور هذا البحث فإنه يظل، برأينا مرجعية في تاريخ المدينة المغربية مع ما قد تثيره بعض عناصر الموضوع من نقاش لدى المؤرخين. فهو ينخرط ضمن التراكم الأولي لفترة ما بعد الحماية، حيث عملت الدراسات التاريخية على إخراج البحث من الأفكار الكولونيالية الجاهزة وتجديد المناهج والمقاربات .

ثم ماذا عن عملية الترجمة؟ وفاء للنص أم كتابة ثانية؟ لأمر صعب حقا. فالنص الواحد يطرح من المضامين والتعابير والمقولات ما يجعل المترجم في مأزق عويصة لا يخرج منها إلا بتعدد أساليب نقل المضامين وسياقات الجمل. لقد حرصنا على احترام هيئة النص وروحه، عبارته ومفاهيمه، ورجعنا في كل مراحل الترجمة إلى النصوص العربية الأصلية، المخطوطة منها والمنشورة، التي اعتمدها المؤلف، وعيا منا بضرورة تقديم هذا التعريب في حلة سلسة يتواصل معها القارئ.

* Kenneth BROWN, An Urban view of Moroccan history, SALE, 1000-1800, Hesperis – Tamuda, vol XII, 1971 pp 5-106

مقدمـــة

التاريخ المحلي والتاريخ القومي

يهدف هذا الموجز التاريخي، مبدئيا، إلى فهم البنية الاجتماعية لمدينة سلا قبل قيام الحماية الفرنسية سنة 1912 وبعدها(1) . ويكتسي تاريخ المدينة، في مرحلة ما قبل توسع الأساليب الحضارية الأوربية في شمال إفريقيا إبان القرن التاسع عشر أهمية قصوى في حد ذاته. غير أن ما سنعرضه من تفاصيل بكل موضوعية، لا يمثل بأي حال من الأحوال دراسة مستفيضة لتاريخ سلا، بل قراءة تحليلية لماضي هذه الحاضرة المغربية المتميزة.

لقد نما فهمي لهذه المدينة من خلال الاطلاع على معظم المصادر المتوفرة. فعلاوة على غربلة الوثائق وانتقائها وتنظيمها بقصد السرد، ركزت على اعتبارين أساسيين : أولا، ماهي التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي أثرت في النسيج الحضري لسلا، أي خاصية المدينة وأهلها ؟ ثانيا، كيف تصور المؤرخون السلاويون المدينة وأهلها ؟ لم أعمل على مقابلة هاتين الفكرتين مع بعضهما البعض، بل حاولت إدماجهما في تفسيراتي التاريخية، راجيا أن يساعد هذا النهج القارئ للتعرف على تاريخ المدينة وتفاعل السلاويين مع ماضيهم وتعاملهم معه.

وتساعدنا هذه النظرة التاريخية حول سلا على فهم تاريخ المغرب ككل. يبرز البحث المجهري خصوصيات هذه الحاضرة ويظهر ما تشترك فيه من مميزات مع باقي المدن المغربية، مما يجعل منها جزءا لا يتجزء من الإرث الحضاري القومي. في هذا السياق، يمكن اعتبار حركية ساكنة سلا عبر التاريخ صورة مصغرة للمجتمع المغربي. معنى ذلك أن أهل سلا قد حافظوا على كيانهم على مر القرون. وبرأيي، تدل هذه الكلمة، تقريبا على ذلك التجمع السكاني الذي يعيش على نحو جماعي في إطار

جغرافي محدد ويتقاسم أفراده أساليب مشتركة في التفكير والمعاش. فقد كان يعيش أهل المدينة في التحام قوي وكأن قرابة واحدة تجمعهم في نسق مجتمعي متماسك بالنظر إلى الآخر "البرّاني". وإذا كان من الممكن استجلاء هذه الظاهرة من منظور سوسيولوجي، خصوصا فيما يتعلق بالقرن 19، فإن رصدها تاريخيا، بطريقة سوسيولوجية مفصلة، يظل صعبا بسبب نقص المادة المصدرية. لذلك، تبقى محاولتي لفهم البنية الاجتماعية للمدينة، في تغيراتها التاريخية، بعيدة عما تتيحه إمكاناتي المعرفية. ومع ذلك، يمكن القول أن المدينة قد منحت لأهلها واجهة خاصة في تصورهم للعالم. فتجربة المدينة ونبوغها جعلاها تتميز عن الحواضر المغربية الأخرى في مستويات معينة، إن لم نقل في طبيعة الأمور نفسها.

أدمج الموقع الجغرافي سلا في جل الحركات السياسية لتاريخ المغرب. فقد ارتبط ميناؤها بالعواصم الداخلية مثل فاس ومراكش، وعاينت بالتالي سيولا من البشر والبضائع والأفكار وهي الحركية التي صقلت تاريخ المغرب عبر القرون. هنالك شبه بين سلا وفاس في بعض الأوجه، ومراكش في أوجه أخرى. فهي تضاهي فاس في رقة المعمار، وإن على نحو أقل جمالية، وبنزوع نحو الانغلاق والاحتماء الذاتي، وتتقاسم مع مراكش طابع البداوة، ولو بصورة أقل حدة. إن ما يميز سلا هو موقعها على ساحل المحيط وجوارها لمنطقة الغرب الغنية بالقمح. لكن، رغم هذا الموقع الملائم، لم تكن سلا قط مركزا اقتصاديا كبيرا في المغرب. فقد ظلت مدينة هامشية، على غرار المدن الحدودية، وانحصر دورها في الربط بين عواصم الشمال والجنوب.

يمثل التحقيب إشكالية كبيرة ليس فقط على مستوى التاريخ القومي، بل المحلي أيضا. يخضع كلاهما للتأويل والنقد. وعليه تقدم فصول هذا البحث نموذجا مونوغرافيا حول سلا وإشارة حول التاريخ العام للمغرب.

توازي الفصول الثلاثة الأولى الخاصة بنماء مدينة سلا التطورات الكبرى التي عرفها المغرب بدءا من الأدارسة ومرورا باتساع الإمبراطوريتين، المرابطية والموحدية، ولانتهاءا عند الازدهار الثقافي لمملكة بني مرين. لقد حاولت التركيز، في هذه الفصول، على الخصال الإسلامية للمدينة باعتبارها بؤرة للجهاد، مقصدا للصلحاء والعلماء، عاصمة ثقافية واقتصادية باعتبارها بوتقة.

وتعكس الفصول الثلاثة الأخيرة الانقلاب الحاصل في تاريخ المغرب من واقع الوحدة والتوسع إلى واقع الانقسام والانكماش. فقد تعاملت مع مدينة سلا كمعقل للصوفية، كدويلة كمجتمع على طريق الانحطاط والدفاعية. مدينة تابعة للسلطة المركزية، وفي نفس الوقت محافظة على بعض الاستقلالية. في هذا المقام، أبرزت الخاصيات الأساسية لسلا من زاوية محلية أكثر منها قومية، مع التنبه بالخصوص إلى الأولياء والعظماء والعلاقات مع الجيران والتكتلات الداخلية. فمن القرن 15 إلى 18 أثرت القرصنة والتجارة، وأيضا التضامن المحلي والنزاع، في تطور ثروة المدينة وبنيتها.

وبرأيي، لايمكن النظر إلى تاريخ سلا ولا إلى تاريخ المغرب ككل من المنظور الدوري، على النحو الخلدوني. وعليه، تتبني قراءتي لتاريخ المدينة على أساس التمييز بين فترتين رئيسيتين، يفصل بينهما القرن الرابع عشر المريني

كـ"عصر عظيم" : فترة التوسع والوحدة وفترة الانكماش والانقسام. لكن، لا توضح هذه الحركة ملامح التحول في المدينة، بالشكل الكافي. لقد سعينا إلى تحليل تاريخي بعيد عن النسق التبسيطي لقاعدة القيام والسقوط الناتجة عن أشكال الخلق والهدم. عرفت سلا تغيرات عميقة في كل مرحلة من مراحل التاريخ. وأحيانا، شهدت ازدهارا اقتصاديا وثقافيا في وقت كانت تعاني فيه البلاد مشاكل عصيبة. لقد ظلت سلا، بالفعل، إلى حد كبير، في مأمن من تفاعلات الداخل، لكنها كانت في المقابل أكثر عرضة للتأثير الخارجي، خاصة الأوربي. في هذا الصدد أبانت الأبحاث الأخيرة بصورة مقنعة عن الدور الكبير الذي مارسته التأثيرات الاقتصادية الخارجية على المغرب، والتي لم تعرها الدراسات المبكرة الاهتمام الكافي(2).

لسوء الحظ، وكما هو الشأن بالنسبة لأبحاث تاريخية أخرى حول المغرب، تبقى هذه الدراسة عاجزة عن كشف الواقع الاقتصادي. لقد حاولت تقديم كل ما اطلعت عليه بخصوص أسلوب المعاش. لكن، تمنع هزالة المراجع من التعمق في الموضوع، باستثناء ما تعلق بالقرن التاسع عشر حيث يتوفر الباحث على العمل الجيد لجون لوي مييج. أما بخصوص الفترات السابقة، فلم يكن بالإمكان سوى تقديم إشارات عامة حول تقلبات النشاطات الاقتصادية : التجارة البحرية مع أوربا والبرية مع إفريقيا، الفلاحة، الصنائع. غير أن المصادر تفيد حول جانب بالغ الأهمية في الاقتصاد: العلاقة الوطيدة بين سلا وأحوازها الغنية. ومع ذلك، تظل فروق هذا التعايش وتبايناته غامضة عبر الزمن. وهكذا، تبقى جل الأسئلة الخاصة بالنشاط الاقتصادي معلقة.

وإذا كان الحديث عن العوامل المتحكمة في النمو الاقتصادي صعبا فإنه يسهل تناول المؤثرات. فقد تحولت سلا بفعل الهجرات المتتالية من مدن شمال إفريقيا والأندلس ومن بوادي العرب والبربر، إلى ملتقى بشري تتعايش فيه أساليب الحضارة والبداوة. وفي الغالب، تمكنت المدينة من احتواء هذه الهجرات. وعموما ظل الانشطار قائما والتعايش واردا.فقد غلب على بعض أماكنها الطابع القروي، وأخرى الطابع الحضري. هنا أيضا، للأسف، لاتسمح المعلومات بتفصيل القول في المجتمع وفهم متغيراته التاريخية.

وعلى الرغم من هذا النقص، يبدو جليا أن سلا كانت على الدوام مدينة منفتحة على مختلف الهجرات، الفردية منها والجماعية. وفي المقابل عمل النازحون على تعديل شخصية المدينة بما حملوه معهم من تراث شعبي أو أسلوب حضري رفيع. وتتمثل أهم هذه المؤثرات في قدوم أصناف متنوعة من الناس: الصلحاء واللاجئون والمغامرون والباحثون عن فرص اقتصادية.

لم تكن سلا قط مدينة كبيرة. تفيد أرقام القرن 19 أن ساكنتها ناهزت 14,000 نسمة. لكن، يجهل كل شيء عن تقلبات الحركة السكانية والديموغرافية، كما عن نسبة كل من الحضر والبدو. أيضا، يصعب تحليل البنية الاجتماعية للمدينة : مكوناتها البشرية، تحالفاتها، نزاعاتها. ما تشير إليه المصادر هو بعض فترات التوتر الاجتماعي. لكن اللافت للنظر هو ذلك التضامن الذي ميز أهل سلا في مواجهة التهديدات الخارجية، حيث تتآلف كل شرائح المدينة مع بعضها البعض في نسيج واحد.

تلتقي الدلائل والإفتراضات الموظفة في هذه الدراسة

بكتابات مؤرخي المدينة، أمثال الناصري والدكالي، لكنها تدقــق في معطياتها دون أن تتعارض معها. لقد اعتبرا سلا وأهلها كأرقى طراز حضاري في المغرب بعد فاس، ونظرا إلى ماضي المدينة من زاوية الإنجازات العظمى لأئمتها ومآثرها وعلمائها وأوليائها، وحاولا في تعاملهما مع تاريخ المدينة إضفاء الشرعية على سمعة سلا كموطن لجماعة إسلامية فاضلة. وبالفعل، هذا ما اشتهرت به المدينة في مجموع البلاد.

لقد ألحت الإسطغرافية المحلية على هذه الصورة المثالية. وإلى جانب ذلك، توجد شهادات شفهية تتناول قضايا أخرى حول شخصية المدينة. لقد ساد إحساس بين الناس مفاده أن المدينة تكونت من الوجهة النفسية بفعل القلاقل التاريخية. وتفسر ظروف الاضطراب التي تم التكيف معها، العقلية المتشددة للسلاويين كما يعترف بذلك هؤلاء أنفسهم. لقد تميزوا بالكبرياء والثقة بالنفس والإرتباط الشديد برموز الهوية الجماعية، وفي ذات الوقت بالعمل والطموح والمرونة والتأقلم مع الطوارئ وحسن استغلال الفرص. ثم إن التمييز بين الممكن والمستحيل حدد نسقا أخلاقيا خاصا بالمدينة، يقوم على أساس الإسلام بتعبيراته المتعددة : الإيمان، الشرع، الثقافة، اللغة. وتتجلى أهم التراكمات التاريخية على النحو الذي تتمثله العقليات، حسب ما أعلمه حول القرن التاسع عشر على الأقل، في الأنس والسكينة والعفة، كما يدعو إلى ذلك الدين الإسلامي. فبواسطة حسهم التاريخي وأيضا الإسلامي، كونهم عرب ومدينتهم إسلامية تكوّن لدى السلاويين، بكل تأكيد، تصور منسجم للعالم ومكانتهم فيه. إنه نسق روحي يتسع بما فيه الكفاية لكل تفاعلات الإسلام في المغرب. وعلى الرغم مما ميزهم من محافظة فقد أحسنوا

للتعامل مع المتغيرات التاريخية .

علاوة على ذلك، تمنح هذه الدراسة مجالا آخر للنقاش حول المدينة الإسلامية(3). فإذا اقتصرنا على الغرب الإسلامي سنجد أنفسنا أمام مدينة مينائية هامة، تشبه طنجة وسبتة ووهران والجزائر وتونس ومدن أخرى، وتختلف عن حواضر إسلامية أخرى في الشرق. والواقع، تبدو المراسي أقل أهمية بالمقارنة مع المدن الداخلية الكبرى المتحكمة في تجارة القوافل، مثل فاس وسجلماسة والقيروان. لكن كينونة سلا وأهميتها، على غرار المدن الساحلية الأخرى، يساعد على الأقل على تعديل الرأي القائل بنزوع المواقع الحضرية نحو الداخل إبان تقلص التأثير الغربي ما بين 600 و1800 (4).

تعتبر سلا، على مستويات متعددة، نموذجا تقليديا للمدينة الإسلامية. فهي تتوفر على مساجد عظمى وحمامات وأسواق ومرافق إدارية. لكنها تفتقد، من جهة ثانية، وفق ما تفترضه بعض الدراسات، لخاصيات أخرى. وبالمقارنة مع الطراز الشرقي تمتعت سلا في فترات معينة بحكم ذاتي محلي. وبالفعل، يبدو أنها قد تمكنت خلال بعض السنوات من القرن 17 من تأسيس دويلة ذات حكم مستقل. زيادة على ذلك كان للسلاويين حس قومي. والحقيقة، لم تكن لـ"القومية" إطار قانوني بامتيازات وواجبات محددة. لكن وجدت "قومية" بالمفهوم العرفي: فالسلاويون، بالشكل الذي يرون به ذواتهم ويراهم به الآخرون، أهل يرتبطون بعضهم ببعض بواسطة النسل أو طول الإقامة أو صلات القرابة. وهم بذلك يميزون أنفسهم عن الغرباء، "البرانيون"، لكون هؤلاء لم يقيموا طويلا بالمدينة أو لأنهم لم يندمجوا بالمصاهرة في التركيبة الاجتماعية.

ويكمن فرق آخر بين سلا ونموذج المدينة الإسلامية في الانعدام النسبي لوجود تحيز ديني أو عرقي أو لغوي. فقد شكل اليهود أقلية بسلا، لكنهم لم يتجمعوا في حي خاص بهم "الملاح" إلا في القرن 19. فباستثناء الطقوس والقرابة، مثل اليهود جزءا لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، ولسهموا في بلورة هوية المدينة ككل. حقا، لقد كانت هنالك توترات ونزاعات بين اليهود والمسلمين، كما كان عليه الأمر بين الأغنياء والفقراء أو بين فرقاء آخرين، بدافع القرابة أو المصلحة، لكن، ظل التآزر بين فعاليات المدينة قائما على الدوام.

اعتمدت سلا في اقتصادها على البحر والبر على السواء أي التجارة الملاحية ومبادلة منتجات الحرف بمنتجات الفلاحة. ويتجلى هذا الانفتاح الاقتصادي والترابط البيئي في التجمع السكاني للمدينة، المكون من الحضر والبدو. فقد حملت إليها الهجرات المتواصلة تأثيرات اجتماعية وثقافية، لكن دون أن تغير من بنياتها الأساسية أو قيمها، أي دورها كحاضرة إسلامية.

من الممكن رؤية الوظيفة الثقافية لسلا من منظور الثنائية المقترح من طرف ريد فيلد وسينجر، بين المدن "الأورتوجينية" والمدن "الهيتروجينية"(5). الأولى تنزع نحو نماء الثقافة وتبلورها على نحو تدريجي ومحلي. أما الثانية فتتجه نحو ابتكار قوالب فكرية تسعى إلى الهيمنة أو الصراع مع ثقافات قديمة. والواقع أن الصنفين معا يضمان كلا الخاصيتين، لكن غلبة هذا الاتجاه أو ذلك يمكّن من تحديد نوعية المدينة أو فترة معينة من تاريخها . من هذه الزاوية، تظهر سلا وهي تتحول من قاعدتها البربرية على عهد الرومان، إلى هيئتها العربية – الإسلامية، كمدينة هيتروجينية. ومن وجهة أخرى، تبدو المدينة ، بالنظر إلى

وظيفتها الثقافية اللاحقة، أي في المرحلة الإسلامية، ذات صبغة أورتوجينية محضة. أما إذا قارناها بالمدن المغربية الأخرى فستظهر أقل أورتوجينية من فاس وربما أيضا مراكش، وأكثر من جارتها الرباط وطنجة. وقد تنطبق هذه التباينات على المغرب المعاصر حيث يمكن اعتبار الدار البيضاء مدينة هيتروجينية.

في هذا السياق يبرز تميز تاريخي آخر بين سلا وفاس علما أن السلاويين كانوا دائما يقيسون أنفسهم بالفاسيين. لقد مثل كلاهما منارة للحضارة الإسلامية ونموذجا للخصال الروحية. لكن، عانت سلا دوما على الرغم من افتخارها بالامتياز الديني والاقتصادي، من هامشيتها بالنسبة للعواصم السياسية، فاس مراكش، مكناس، الرباط. ومع أن علاقتها بالسلطة المركزية لم تكن منعدمة، حيث كان بعض السلاويين قد تقلدوا مهام إدارية في السلك المخزني، فإنها لم تؤثر بقوة في الحياة السياسية. إنها التبعية التي ولدت في نفوس أهل المدينة إحساسا بالطمس.

لقد ركزت على خاصيات المدينة لأمنح للقارئ صورة حية حول سلا وأهلها. والجدير بالإشارة أن تاريخ سلا يعكس ملامح عديدة للمجتمع المغربي وتطوره التاريخي. فسواء تعلق الأمر بالمغرب أو بسلا، يظل الماضي مفعما بحركية البشر والفكر. إنها أرض اللجوء، أرض المغامرة، أرض الفتح، أرض الإيمان أرض الاختمار الثقافي. يمكن النظر إلى سلا كصورة مصغرة لمميزات الغرب الإسلامي لما تتمتع به من سمات.فهي تختلف عن نموذج حاضرة الشرق الإسلامي لكنها تشترك معه في خضوعها لنظام حكم مشرقي على النحو الذي أظهره الموحدون. إنها موطن الصوفية والطرق الدينية والحس الروحي.

ويمكن رؤية الهوية المحلية لسلا كوجه آخـــر للقوميـــة بالمغرب ككل. فقد نشأت هنا وهناك في القرن 16 و17 حركـــات جهادية للدفاع عن البلاد والدين ضد الهجوم الأجنبي مما ســـاهم في خلق إحساس قومي. هنا وهناك أيضا، ســـعى النـــاس إلـــى الانفتاح على الشرق وإفريقيا السوداء وأوربا الغربية مـــن أجـــل رخاء الاقتصاد وتفاعل الثقافة. في هذا المقام، لا يسع المرء وهو يكتب تاريخ المغرب سواء في منظوره العـــام أو المونوغرافـــي إلا أن يشدد على قوة حضارته ونبوغ أهله.

****

ملاحظة : احتفظنا عند وضع الهوامش بالعناوين الأصلية عند ذكرها لأول مرة، وقمنا عند تكرارها باختزالهـــا على الطريقة العربية.

1) ـــ لقد قدمت نتائج الأبحاث التي قمت بها في فرنسا والمغرب ، ما بين 1965 و1967 ، في الأطروحة الـــتي حضرتها في تخصص الدراسات الإسلامية:

The Social History of a Maroccan Town : Salé, 1830-1930 , University of California, Los Angeles, 1969.

2) ـــ أنظر بخصوص معالجة تاريخ شمال إفريقيا من منظور تقلبات تجارة الذهب مع السودان وأوربا :

Y.LACOSTE, Ibn Khaldun. Naissance de l'histoire passée du tiers-monde, Maspero , Paris ; 1966.

وأيضا فرضيات عبد الله العروي حول المؤثرات الأوربية، العسكرية والاقتصادية، على التطورات في المغرب:

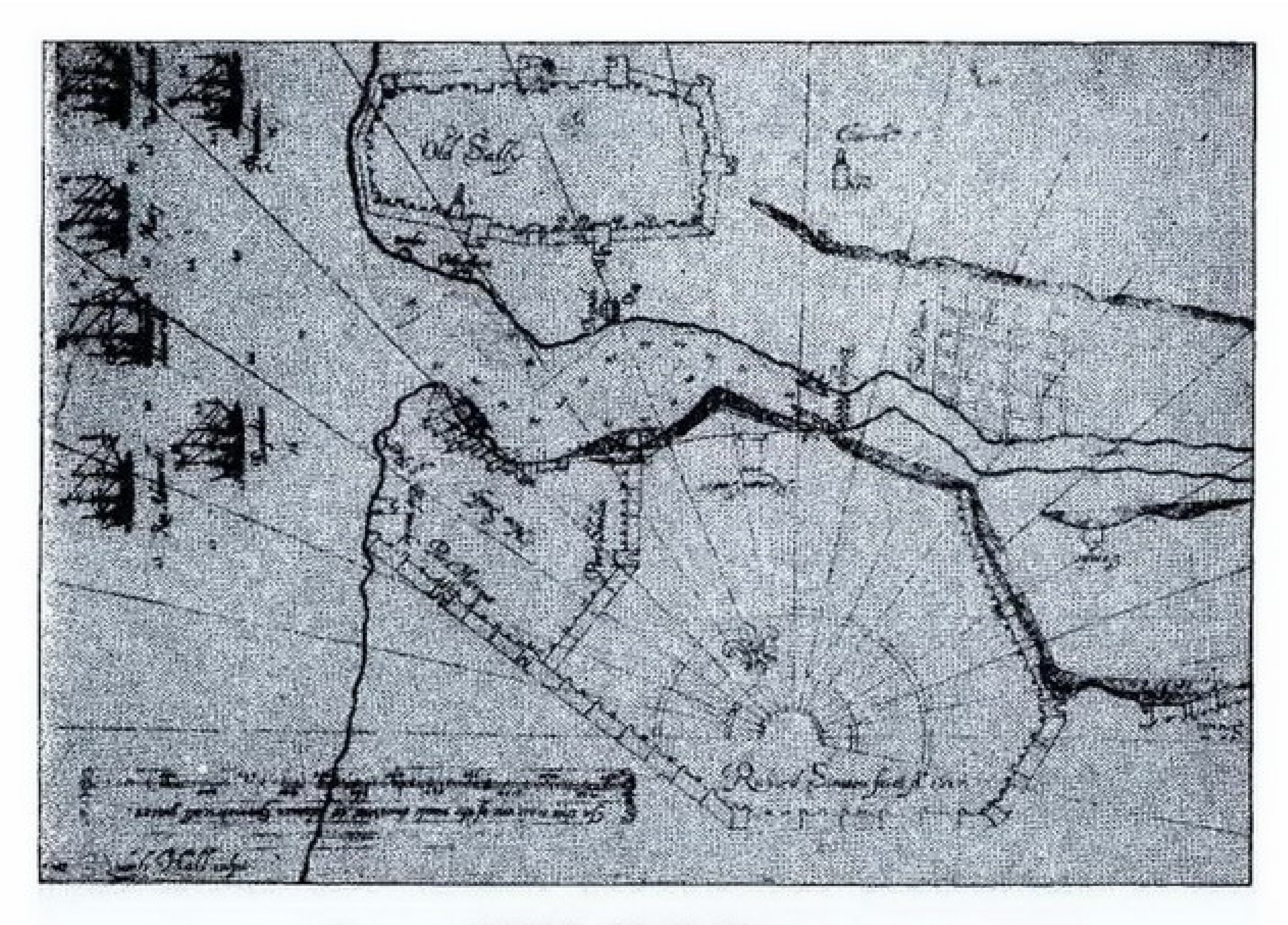
L'histoire du Maghreb, Maspero, Paris , 1970.

3) ـــ تقدم ثلاث دراسات صدرت مؤخرا بالإنجليزية معطيات جديدة وتعيد النظر في نتائج الأبحـــاث الأولى المرتبطة بالموضوع :

A.H. Hourani and S.M. stern (eds.), The Islamic City A. Colloquiun, Oxford, 1970, I. Lapidus (ed), Middle Eastern Citiers : Ancient, Islamic and Contemposary Middle Eastern Urbanisme. A Symposium, Berkeley, 1969 I. Lapidus, Muslim Cities in the later Middle Ager, Cambridge, 1967.Cf. F.P.H.E.,6° section : Sciences économiques et sociales. Division des aires culturelles. Les villes. Entretiens interdiscipliqaires sur les sociétés musulmanes, Paris, 1958.

4) – Cf. C. Issawi, « Economic Change and Urbanization in the Middle East : A Historical Analysis » in I. Lapisus(ed), op. cit.

5) – R. Redfield and M. Singer, » The Cultural Role of Cities », in Economic Development and Cultural change, vol .III, n°1 , oct., 1954 pp. 53 – 77.



سلا والرباط (1637)

الفصل الأول

نشأة مدينة إسلامية

يقدم الساحل الشمالي المحاذي للرباط، عاصمة المغرب اليوم منظرا رائعا لأبي رقراق وعدوتي الرباط وسلا. فعلى الضفة اليمنى، على مقربة من القنطرة التي شيدت بعد الاستقلال، ينتصب باب كبير، قاتم وعظيم: "باب لمريسة"، أي "باب المرسى الصغير" ويمثل هذا الباب الذي يكون تقريبا الزاوية الجنوبية الشرقية لسلا، أحد أجزاء أسوار المدينة منذ القرن الثالث عشر .

ومن القنطرة، يظهر التقاء المحيط الأطلسي بنهر أبي رقراق على مسافة ميل تقريبا. في شمال الوادي، على الجهة اليسرى تطل قصبة الأوداية التي بنيت خلال القرن الثاني عشر. وخارج أسوار القصبة، أخذت المدينة القديمة للرباط لتجاهها نحو للجنوب والشرق. تشرف على هذا المشهد كله صومعة حسان على الجانب الأيسر من الطريق الرابطة بين سلا والرباط عبر القنطرة. ويعود تاريخ هذه الصومعة إلى القرن الثاني عشر.

من أعلى الصومعة، في اتجاه عرض الوادي تظهر سلا كمدينة صغيرة ومتراصة. كل شيء بها أبيض باستثناء المنارة الموجودة بوسطها. وبمحاذاة المدينة يبدو المحيط وكأنه يسارع نحو الوادي ليفرغ مائه فيه. أيضا ومن نفس الموقع، لكن هذه المرة في اتجاه عالية الوادي، على الضفة اليسرى، تطل على النهر قصبة أخرى شامخة بأسوارها العالية. إنها شالة التي استعملها الملوك المرينيون مقبرة لهم في القرنين 14 و15 والتي كانت في القديم مدينة رومانية، "سلا كولونيا"، وفيما قبل مركزا فينيقيا يدعى سلا أو شالة.

يعالج المؤرخون المغاربة التقليديون التاريخ ما قبل الإسلامي لهذه المدن بإيجاز. يقول ابن علي الدكالي في "الإتحاف

الوجيز" : "غير خفي أن وجود [مدينة سلا وعدوتها شالة] سابق على الإسلام بكثير، والحضر والحكمة كانت فيهما قبل الإسلام... فالقرطاجيون كانوا قد دخلوا إلى المغرب قبل الهجرة النبوية بـ 1468 سنة تقريبا ... ثم استولى على الإقليم الرومان ... فبقي أهل المغرب خاضعين لهم معتنقين لديانتهم متخلقين بأخلاقهم زمنا طويلا. ثم جاء الوندال فافتكوا بلاد المغرب من يد الرومان، وذلك قبل الهجرة بـ 156 سنة تقريبا ... ثم استردها منهم قهرا أحد قياصرة القسطنطينية، ودامت تحت سلطة الروم ... إلى أن فتح الله هذا القطر المغربي بالإسلام. وقد كان سكان تامسنا، البلاد التي تجاور العدوتين، على دين النصارى حتى أظلهم الإسلام ونوره".

تتميز أغلب المصادر العربية المتوفرة والتي تخبرنا حول القرون الثلاثة الأولى للمرحلة الإسلامية في المغرب، بكونها متأخرة. تروي كتابات ابن عذاري في القرن 13 وابن خلدون في نهاية القرن 14 بأن سكان أبي رقراق كانوا يتكونون من النصارى واليهود حتى بعد مجيء الإسلام إلى المغرب بأكثر من قرن(6). من الصعب تحديد زمن اعتناق سكان هذه المنطقة للإسلام. لقد بدأ عقبة بن نافع فتحه الإسلامي للمغرب سنة 683. أما موسى بن نصير الذي حطّ بالبلاد في مطلع القرن 8، فقد مر بهذه الجهة، وربما أدخل عددا منهم إلى الدين الجديد. غير أن عملية الفتح هاته كانت غير كاملة. ويعود الفضل في إتمامها إلى مولاي إدريس الأول الذي بادر بعد تلقيه قسم البيعة من أهل زرهون سنة 789 ، إلى فتح سلا وشالة وما جاورهما من بلاد تامسنا وتادلا، ، فكان فتحا حقيقيا(7). وحسب ابن خلدون دخلت سلا في دين الإسلام بفضل وجودها بالمنطقة للتي تركها إدريس

الثاني لأخلافه عقب وفاته سنة 828. منهم عيسى الـــذي نصبــه أخوه محمد حاكما على مدينتي شالة وسلا وآزمـــور وتامســنا والقبائل المجاورة. لكن تمرده، بعد ذلك بقليل، ضد أخيــه عمــر جعله يترك سلا وباقي المنطقة الوسطى(8).

في هذا السياق، صارت منطقة أبي رقراق تخما للإســـلام السني في مواجهة الهرطقة. ومعلوم أنه حوالي أواســط القــرن التاسع كان زعيم قبائل برغواطة البربرية قـــد اعتنــق علانيــة المذهب الخارجي وأسس مملكة في إقليم تامسا، تمتد مـــن أبــي رقراق إلى أم الربيع(9). بعد ذلك بقرن، أي سنة 977 كتب ابـــن حوقل، الجغرافي المشرقي، بخصوص سلا قـــائلا: "مـــن وراء وادي سبه إلى ناحية برغواطة على نحو بريد وادي سله، وإليـــه ينتهي سكنى المسلمين. وبسله رباط يرابط فيه المسلمون. وعليـه المدينة الأزلية المعروفة بسله القديمـــة وقــد خربـــت. وللنـــاس يسكنون ويرابطون برباطات تحف بها، وربما اجتمع فـــي هـــذا المكان من المرابطين مائة ألـــف إنســـان يزيـــدون فـــي وقـــت وينقصون لوقت، ورباطهم على برغواطة من قبائل البربر علـــى البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التي سقت عمارة بلد الإســـلام إليها يغزون ويسبون"(10).

استنادا إلى هذا النص، يوجد الرباط المذكور الذي تجمع فيه الجنود لمحاربة أعداء الإسلام السني، علـــى الضفـــة اليســـرى للوادي. ومهما يكن، يوحي استعمال لفظ "سلا القديمة" من طــرف ابن حوقل أن مدينة سلا التي فتحها مولاي إدريس ظلت مركــزا دائما. ويبدو أنها المدينة التي حملت فيمـــا بعـــد تســـمية "ســـلا الجديدة". ورغم أن مصادر هذه الفترة تبقى هزيلة وغامضة فإنها تشير إلى إمكانية وجود المدينة بالموقع الحالي لسلا.

ويرى ابن خلدون اعتمادا على كتب أنساب البربر أن الحرب تواصلت ضد البرغواطيين بفضل قيام "مملكة شالة" في اواخر القرن العاشر. وهي المملكة المكونة من قبيلة بني يفرن الزناتية التي لعبت دورا هاما في تاريخ شمال إفريقيا خلال القرون الثلاثة الأولى للإسلام. فقد تمكن زعيمها، حمامة بن زيري، من التخلص من قبضة بني مغراوة على المدينة واستطاع ابنه تميم جعل شالة عاصمة له وقاعدة لعملياته العسكرية ضد مغراوة وبرغواطة. هكذا، ظلت المدينة في يد بني يفرن إلىأن فتحها المرابطون في أواخر القرن الحادي عشر (11).

والواضح أن القصد هنا من شالة هو سلا، أي الموقع الكائن بالضفة اليمنى للنهر. يظهر ذلك بكل تأكيد من خلال نص من أواسط القرن11 ، لأبي عبيد البكري، يشهد على خراب شالة، المدينة القديمة الموجودة بالضفة اليسرى للوادي. أما المعلومة الوحيدة التي يقدمها لنا بخصوص الضفة الأخرى فتتعلق بوجود زراعات جيدة وساكنة(12). بناءا على هذه المعطيات، يمكن الافتراض أن سلا قد تحولت بين القرنين 10 و 12 من معسكر إلى مركز حضري إسلامي.

ــ قيام سلا كمدينة .

" سمعت من غير واحد ممن أثق به أن بني العشرة الذين بنى والدهم مدينة سلا بأرض المغرب، كان سبب بنائه إياها أنه ولد له عشرة ذكور من حمل واحد من امرأة له، فجعلهم في مائدة ورفعهم إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحدي فأعطى كل واحد منهم ألف دينار وأقطع أباهم أرضا بوادي سلا فبنى بما مدينة تعرف إلى الآن ببني العشر"(13). روى هذه الأسطورة العجيبة حول نشأة سلا العلامة التونسي الشهير، ابن

عرفة، في القرن 14. والراجح أن يكون هذا الأخير قد استند في روايته إلى أحد تلامذته من سلا. فماذا تمثل هذه الأسطورة ؟

يرى ابن علي الدكالي أن إحياء المدينة كان حوالي 1030 ويُقِرُّ أن بانيها هو ابن عشرة. ثمة مبررات لهذا التاريخ. فقد كتب صاحب الإستبصار في أواخر القرن 12 أن حكام المدينة العشريون، وأتباعهم أقاموا حاضرتهم على الضفة اليمنى،"المسماة اليوم بسلا"، واستقروا هناك في حومة الجامع الأعظم(14). زيادة على ذلك، وكما كتب ابن شريفة، حملت سلا في بعض النصوص الأولى تسمية "مدينة بني العشر". ولا تزال بعض الأصداء الغامضة لهذه التسمية عالقة في الرواية الشفهية لأهل المدينة.

هنا نجد أنفسنا على أرضية تاريخية متينة لأن الوثائق تشير بوضوح إلى بني عشرة. فخلال القرن العاشر، كانت الدولة الأموية بقرطبة قد عينت جد هذه الأسرة، حاكما على المغرب الأوسط لمدة من الزمن. ويبدو أن حفيده، القاسم، هو أول من استقر من أفرادها في سلا(15). ويساعدنا المؤرخ السلاوي، ابن علي، من خلال فقرة خصصها لابن القاسم ، على وضع ترتيب زمني وفهم المفاخر التاريخية وروح الشهامة التي تمثل جزءا من الصورة الذاتية للسلاويين: "أبو العباس بن القاسم الذي عاش في أواسط القرن11، خلال العهد المرابطي، من بيت بني العشرة الذين ورثوا المجد بسلا من قديم...وهم بدور سمائها وصدور أسمائها وأعيان سلا وزعماؤها وأفاضلها وكرماؤها. وكان واسطة عقدهم ... وأبو العباس هذا هو باني القصر العجيب بسلا الذي صار بعد منزلا للملوك الموحدين"(16) .

علاوة على ذلك، يذكر ابن علي من بين صلحاء المدينة

سيدي عبد الله بن عشرة المنتمي هو أيضا إلى القرن 11. هـــذا الولي المدفون على الأرجح في قبر يعرف الآن بسـيدي الحـاج عبد الله الغليظ، بحومة باب احساين ، لا يزال إلى اليـوم محـط توقير من طرف السلاويين. ويبدو ابن علي متيقنا من أن الولـي المذكورهو ابن القاسم. وقد ظهر فيما بعد ضمـن هـذه العائلـة الأندلسية الشريفة رجال آخرون ذوو شـهرة، تمـيزوا بـالتقوى والعلم، لكن لم يحظ أحد منهم بإشارة في المصادر بعد القرن 13. ومع ذلك بقي في المدينة رجل عجوز صالح، درّاز الحرفة يعتبر نفسه من أخلاف بني العشرة. إنه آخر أفراد الأسـرة السـلاوية المعروفة باسم أولاد الغليظ.

ابتداء من القرن 12، تصبح المادة التاريخية أكـثر وفـرة وإقناعا. فضلا عن ذلك، يتجدر في المدينة قسـم مـن السـاكنة الحالية قبل هذا التاريخ. فقد كانت سلا تخـما في الـقرنين 10 و 11، تجمع فيه عدد هائل من الجنـود. ويظـهر أنـها كـانت معسكرا لمملكة زناتة البربرية. ومع نهوض المدينـة واسـتقرار بني العشرة بها ، نزحت إليها عناصر جديـدة، أهمـها حضـر الأندلس. لا يميز ابن علي بين العرب والبربر، لكنه يؤكـد أن تاريخ سلا كحاضرة وكأهل يبدأ مع بني العشرة. فقد بنـوا بـها مسجدا عظيما، الأول من نوعه بالمدينـة، وأقـاموا حولـه أول أحيائها. هكذا قدم إليها الإسلام أكثر مما لظهرته الروح الجهاديـة للمستوطنين البربر الأوائل. لقد حمل معه، حسـب ابـن علـي :"أحكام البناء واستخراج الميـاه وجـودة المنسـوجات وإتقـان الغراسة والفلاحة وأحكام صناعة الطين من آجور وماعون ومـا عدا ذلك لا يعرف له أثر (قبل الإسلام) ولما جاء الإسلام الحامل لراية التمدن والحضارة والمعارف...عمرت أسـواق المعـارف والحرف

والصناعات...فاستحكم التمدن في سلا وتأصلت حضارتها"(17).

هكذا صارت سلا ، في وقت مبكر من نمائها، حاضرة مركزا للحضارة الأندلسية، مدينة بورجوازية بامتياز، عاصمة اقتصادية وثقافية ودينية. لقد شكلت صحبة فاس وتطوان وأيضا الرباط فيما بعد، واحدة من الحواضر الأربعة للمغرب، حيث شموع المعرفة والذوق للمرهف(18). لكن، تجب الإشارة إلى أن سلا لم تشهد هجرة واسعة للأندلسيين على غرار ما عرفته المدن الأخرى. فقد ظل عدد سكانها المنحدرين من الأندلس قليلا على الرغم من بني العشرة وأسر أخرى. لقد شكلت قبيلة زناتة أسلس ساكنتها الأولى وازدادت أعداد البربر بالمدينة مما تبقى من مملكتي بني يفرن وبرغواطة عقب الاكتساح المرابطي عند نهاية القرن 11 . وبالفعل، جذبت سلا عبر تاريخها ، وباستمرار عددا من المهاجرين، البربر بالأساس . وقد منح هذا الخليط بين ثقافتي وعقليتي عرب الأندلس والبربر الأهالي صفة بالغة الأهمية للمدينة(19).

6) ـــ حسب ابن عذاري، كان طارق بن زياد قد استقر بسجلماسة قبل فتحه لإسبانيا عند مطلع القرن8 لأن منطقة سلا كانت تابعة للنصارى. راجع :

E. Fagnon, Histoire de l'Afrique et de l'Espagne , Alger , 1901, p.39.

7) ـــ ابن علي الدكالي ، الإتحاف الوجيز، مخطوط خ.ع. الرباط ، د. 1320 ، ص:8.

8) – Histoire de Berbères, trans. Dy De Slane, Alger, 1854, II ,Appendix IV, p. 563, D. Eustache, « Idrisids », in E.I.2, p. 1035.

9) – Cf. R. Le Tourneau, « Barghwata », in E.I.

وحول إقليم تامسنا أنظر:

A. Adam, Histoire de Casablanca des origines à 1914, Aix-en-Provence, 1968,pp.28s.

10) – Kitab al – masalik wa – l – mamalik, ed.by. M.J. de Geoje, Part II, Leiden, 1873, p. 56.

11) ـــ كتاب العبر، 3 ، ص186 ، 221 ، 235، 251.

12) – De Slane, Description de l'Afrique septentrionale, Alger, 1867, p.87.

ويخبرنا صاحب كتاب الاستبصار في نهاية القرن 12 بأن سلا كانت تدعى شالة من طرف الأجانب ، أنظر :

E. Levi – Provençal, Extraits des Historiens Arabes du Maroc, Paris 1948, p.45.

13) ـــ محمد بن شريفة، "أسرة بني عشرة" ، مجلة تطوان ، ع10، 1965 ، ص179ن عن مختصر ابن عرفة (ت 1401) ، مخطوط خ.ع. ن الرباط.

14) ـــ كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية 1958، ص:14.

15) ـــ ابن شريفة، ن.م. ، ص179. أنظر أيضا:

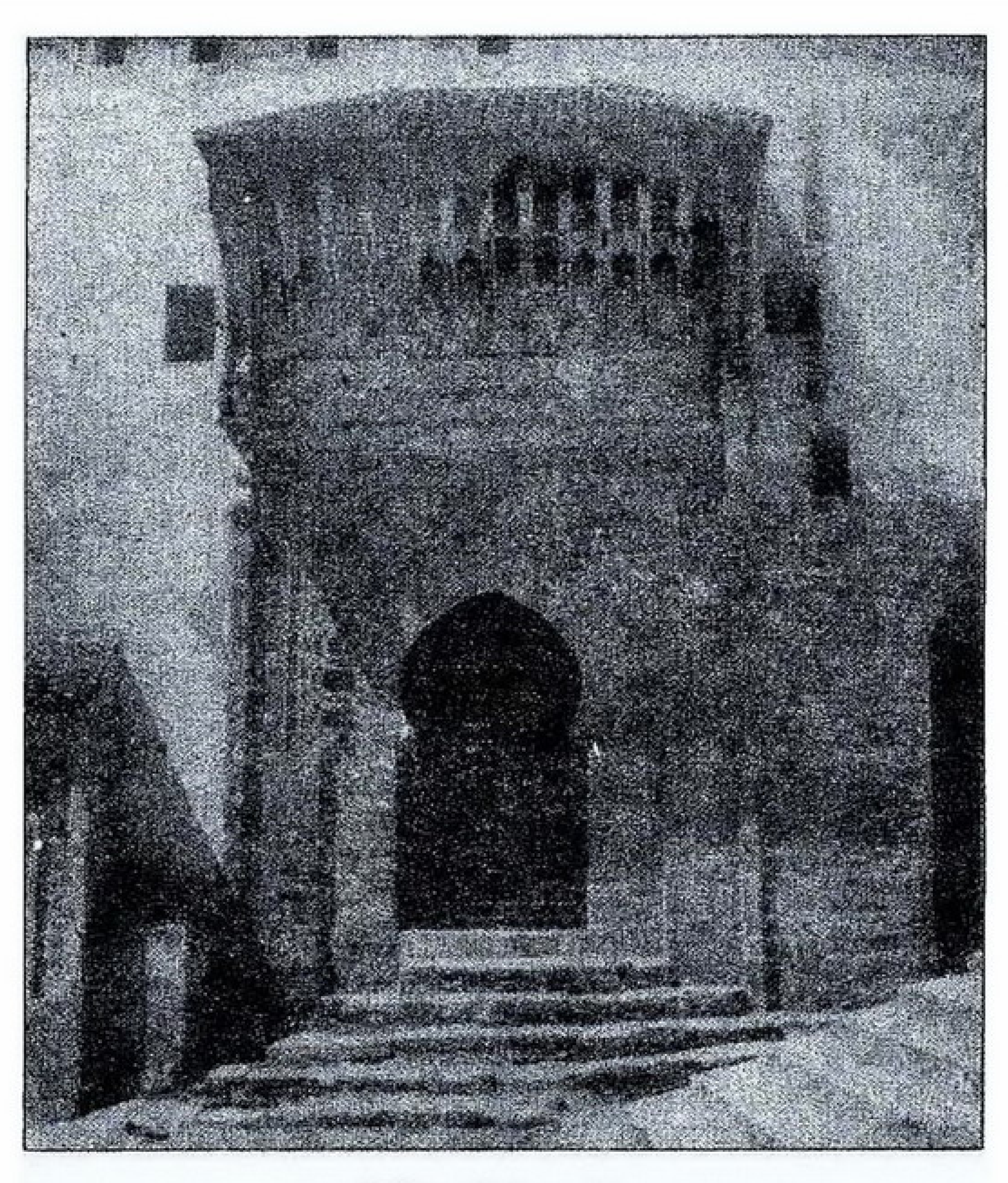
E. levi- Provençal , Documents inédits d'histoire almohade, Paris, 1928, p.106.

16) ـــ الإتحاف الوجيز ، ص: 74.

17) ـــ نفسه، ص: 21 - 22.

18) – J.L. Miège, Le Maroc et l'Europe, Paris, 1962, III, p. 24, n.2.

19) ـــ للمزيد من التفاصيل بخصوص هذه القضايا وأيضا حول عائلات سلا في القرن 19، راجع ك. براون، ن.م.



المدرسة البوعنانية

الفصل الثاني

نماء سلا

المرابطون (1061 – 1146) والموحدون(1130 – 1269)

اتساع المدينة :

خلال المرحلة الممتدة من أواسط القرن الحادي عشر إلى أواسط القرن الثالث عشر، نمت مدينة سلا على غرار المدن المهمة الأخرى في المغرب. في بداية القرن الثاني عشر، كان بربر زناتة وعرب الأندلس يقطنون في ثلاث حومات على الأقل، لا تزال موجودة إلى اليوم:

1) ـــ الطالعة، قرب الجامع الأعظم، ويسكنها بنوعشرة .

2) ـــ زناتة، عند قدم عقبات الجامع.

3) ـــ البليدة. كان هذا المجال محصنا، تحيط به الأسوار التي تعرضت بعض أجزائها للهدم في النصف الأول من القرن الثاني عشر إثر استيلاء الموحدين على المدينة.

والظاهر أن المدينة اتسعت خارج أسوارها منذ العهد المرابطي فقد أنشأ يوسف بن تاشفين مسجدا جديدا للجمعة هو جامع الشهباء، بعيدا عن نواة المدينة، في اتجاه الشرق. وقد كشفت الحفريات التي أجريت بهذا الموقع تحت الرمل والأعشاب في بداية القرن الحالي، على أعمدة رخامية ربما أتي بها من خرابات شالة الرومانية. جامع آخر بناه الموحدون في نفس الاتجاه هو مسجد داوود الذي ظلت صومعته، المسماة ب"بورمادة"، قائمة حتى بداية هذا القرن، رغم أن ثلثيها مدفونان تحت سطح الأرض(20). توحي هذه المساجد الناشئة بتزايد سكاني ملحوظ داخل المدينة خلال القرنين 12 و13 وبنمو حي شعبي بعيد عن المركز الحضري الأصلي(21). ومن المحتمل أن يكون الهدف من بناء هذه المساجد الجديدة هو إيقاف تسرب القادمين الجدد من البوادي إلى الحومات الداخلية. وهكذا يمكن اعتبار الازدواجية التي تشهدها سلا اليوم بين نواة حضرية داخلية

وهامش قروي مجاور، سمة مميزة لتنظيم المجال والبنية الاجتماعية للمدينة منذ زمن مبكر.

ومن جهة أخرى، يظهر أنها كانت منذ القرن الثاني عشر قبلة للمعارف الدينية. فقد زارها ابن تومرت، مؤسس الدولة الموحدية، سنة 1121 حيث أقام بمنزل الفقيه أحمد بن عشرة وقدم دروسا لزواره. ورغم ما تعرضت له أسوار المدينة من هدم على يد عبد المومن بن علي، بعد اثني عشر سنة من تلك الزيارة، فإنها ظلت ذات أهمية تحت سلطته(22)، في وقت كانت فيه للرباط مدينة صغيرة ومجرد محل لإعداد الجيش الموحدي الموجه نحو الجهاد بالأندلس، وإن كان الخليفة قد توفي بسلا سنة 1163 قبل عملية الجهاد هاته. لقد وفرت الرباط وسلا للمرابطين والموحدين معسكرا رئيسيا(23)، وشكلتا في نفس الوقت عاصمة ثانية للدولة، بعد مراكش وإقامة صيفية للسلاطين. والواقع أنهما مثلتا مركزا للسلطة أكثر مما كانت عليه العاصمة نفسها بالخصوص في أواخر العهد الموحدي.

في نهاية القرن الثاني عشر اكتملت ساكنة سلا مع نزوح البربر من مختلف أنحاء شمال إفريقيا والعرب من تونس والنصارى المهجرين من مملكة غرناطة(24)، في وقت اتسعت فيه هندسة المدينة بشكل كبير تحت حكم الأمير الموحدي يوسف. أما على الضفة الأخرى من الوادي، التي كان ينتقل إليها الناس عبر قنطرة خشبية وقت الجزر، فقد نمت مدينة جديدة أي الرباط بمنارتها حسان الهائلة، التي بنيت في عهد يعقوب المنصور لتلعب إلى جانب وظيفتها الدينية، دورا عسكريا.

وعلى نفس الطراز كان لسلا مسجدها الأعظم: الجامع الكبير الذي بناه الموحدون في أواخر القرن 12، بالمكان الأصلي

لمسجد بني عشرة. وهو مسجد مساحته كبيرة جدا، توازي سعة مسجد القرويين بفاس. وقد شيد بأعلى موقع في المدينة مما جعل صومعته ذات الهيئة المستطيلة والجرداء تشرف على المدينة ظاهريا وروحيا. وتذكر المصادر أيضا أن هذا البناء الذي سهر عليه مهندس غرناطي، ساهم فيه ما يقرب من سبع مائة أسير نصراني وصناع مسلمون من الأندلس وأيضا بناؤون من سوس خصوصا فيما يتعلق بتشييد حومة الطالعة المجاورة للمسجد(25). وعلى الرغم من هذا البناء الجديد، فقد تم الحفاظ على جزء قديم من الجامع لاحتوائه على قبر لأحد صلحاء القرن الثاني عشر (26)

قبلة العلماء:

تتجلى سمعة سلا وشهرتها بالأساس منذ القرن الثاني عشر، في داخل المدينة وخارجها، في تميزها باحتضان رجال التقوى. وحسب ابن علي، تكمن هذه الشهرة في حضارتها وتجارتها، في كونها نقطة لانطلاق عمليات الجهاد وموطنا للفقهاء وقبلة للسادات والأولياء. لقد أشار اليوسي في القرن السابع عشر إلى هذا التقليد ونظم شعرا نعت فيه سلا بمقصد النساك(27). وإلى اليوم لازال يتكلم أهل فاس عن سلا كخلوة.

في هذا السياق نذكر شخصين كبيرين عاشا في القرن الثاني عشر وحظيا بتوقير عظيم من لدن السلاويين. إنهما ابن العباس وأبو موسى(28). وتدل التراجم المتوفرة حولهما عن الرؤية التي يحملها أهل المعرفة في سلا حول الإرث التاريخي للمدينة وخاصيتها، كما تكشف النقاب عما يعتبره المجتمع من مثال إنساني وقيم دينية.

1 ــ ابن العباس :

توفي سيدي "بلعباس"(29) كما هو معلوم في سلا سنة 1145

ودفن خارج باب فاس، المعبر الرئيسي للمدينة من الجهة الشرقية، بالمقبرة المعروفة اليوم باسمه. كان رجلا ذا ثروة هائلة، ومع ذلك اختار، مع تقدمه في السن، الانعزال عن الناس والابتعاد عن أمور الدنيا والتصدق بكل أمواله على المحتاجين ليتفرغ لعبادة ربه. ومن مناقبه أنه حفر قبره بيده لما أحس باقتراب منيته. وقد ذاع صيته شيئا فشيئا، حيث لم يشيد ضريحه الجميل إلا بعد مرور قرنين عن وفاته، وذلك بأمر من أبي عنان المريني. لكنه رمم فيما بعد، لما أصابه الخراب، تحت رعاية مولاي إسماعيل. فأخذ الضريح شكله الحالي وأشرف على شؤونه، بتعيين من السلطان، أحد الأشراف العلويين، محمد بن سعيد الذي كان قد استقر بسلا في أوائل القرن السابع عشر وظلت بالتالي عائدات الضريح بيد أخلاف هذا الأخير. وهكذا بقيت مناقب سيدي بلعباس خالدة في ذاكرة السلاويين بواسطة هذا الضريح ودعمت رموز المدينة وقيمها الدينية(30).

2 ــ أبو موسى:

يعتبر قبر أبي موسى الدكالي ، الولي الصالح، المعروف بـ"سيدي موسى"، من أهم أضرحة المدينة. عاش هذا الرجل في القرن 12. وحسب ما ترويه كتب المناقب، كان سيدي موسى "بوهالي"، يعيش من بقول البرية وسمك البحر، يبيعهما ليشتري بثمنهما خبزا، يترك لنفسه خبزتين ويتصدق بالباقي على المساكين، وكان كلما أقبل موسم الحج تغيب عن الناس متعللا بزيارة أهله بدكالة. وقد أقام على ذلك مدة اثني عشر سنة حتى أخبر بعض الحجاج أنهم رأوه بالحجاز(31). ومن كراماته أيضا انقلاب عسلوج الكلخ حلوا طيبا واختصار للطريق وطيها. وتقول نفس الكتب أنه أعد كفنه بنفسه باقتصاده بضعة دراهم كان قد

كسبها من حراسة الكروم بالاسكندرية. هذه الدراهم إضافة إلى نسخة من المصحف الكريم كانت كل ما يملك(32).

كان سيدي موسى يقضي الليل في غرفة بدار القاضي الحالية. تلك البناية القديمة التي كانت لول الأمر فندقا للزيت في حياة هذا الولي، ثم مارستانا في عهد المرينيين وفيما بعد فندقا "اسكور" للسلع الواردة من البوادي، وذلك حتى بعد الحرب العالمية الأولى. عند وفاته تنافس أعيان المدينة في دفنه. فقد أراد كل منهم إيواء قبره برياضه. هكذا دفن لول الأمر، داخل المدينة، برياض بني عشرة، إلا أنه نقل بعد أسبوع إلى الموقع الحالي لقبره بشاطئ البحر، على مسافة ميل تقريبا من جهة الشمال. هذا بنت عليه ملالة بنت زيادة الله قبة رائعة مكلفة. وهي القبة التي رممها مولاي إسماعيل بعد أكثر من خمسة قرون.

احتضن الضريح، حتى مطلع القرن الحالي، موسما سنويا لمدة ثلاثة أيام من شهر غشت، جلب إليه عددا هائلا من سكان المدينة وأهالي القرى المجاورة. هؤلاء بالخصوص كانوا يأتون في قوافل وينصبون خيامهم على طول الساحل. ويعود هذا الاحتفال المتميز، وإن كان يرتبط بتقليد قديم إلى أوائل القرن 18 حيث كان يتقدم الضريح أحد الأشراف العلويين بالمدينة. لقد استقطب هذا الموسم، أكثر من غيره، خلقا كثيرا من خارج المدينة(33) . هذه الشعبية، مع ما تحدثت عنه كتب المناقب من فضائل التقوى والزهد، زادت من تجميل صورة الولي كرجل يعيش من الفلاحة التي هي أسلوب المعاش اليومي لغالبية الناس. وعلاوة على هذا التجانس مع قيم هؤلاء، اعتبرت البركة النابعة من زيارة الضريح والاستحمام بإحدى المغارات المجاورة له

ذات فائدة في معالجة عقم النساء.

ولي آخر، من القرن الثاني عشر، لكن أقل شهرة من سابقيه، هو أبو علي الشريسي البكاء، الأندلسي الأصل، السلاوي المدفن. لقد جسدت خصاله هي أيضا، قيما دينية رفيعة، لدى السلاويين. فقد كان كلما سمع آية من القرآن الكريم إلا وسالت عيناه بالدموع. كان رجلا تقيا، حج نحو عشرين مرة. ويوجد قبره بزاوية بناها بنو مرين، كانت بيد أتباع القطب الشهير مولاي أحمد الصقلي الفاسي، ثم انتقلت فيما بعد لأصحاب الطريقة الدرقاوية، أتباع الشيخ مولاي العربي الدرقاوي في القرن التاسع عشر. ففي هذه الزاوية، ولعدة قرون أذرفت عيون الناس دموعا لسماعها آيات القرآن الكريم، وفيما بعد أذكار طريقة درقاوة.

الحياة الاقتصادية :

تعتبر معلوماتنا حول أسلوب المعاش في سلا قبل القرن الثاني عشرهزيلة جدا. لكن ، بفضل الملاحظات الموجزة للإدريسي نستطيع الخروج ببعض الانطباع حول النشاط الاقتصادي الرئيسي للمدينة في أواسط القرن المذكور: "هناك عمارات متصلة وزروع ومواش... وسلا على ضفة البحر... وهي مدينة حسنة حصينة في أرض الرمل. ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف.لأهلها وسعة أموال ونمو أحوال والطعام بها كثير رخيص جدا وبها كروم وغلات وبساتين وحدائق ومزارع. ومراكب أهل اشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب البضائع. وأهل إشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية"(34).

من المحتمل إذاء بناءا على هذه النشاطات الفلاحية والحرفية(35) والتجارية أن تكون سلا قد شكلت مركزا اقتصاديا هاما بعد العاصمتين، فاس ومراكش، ومثلت المرسى الرئيسي للمغرب(36).

****

20) — يرى ابن علي أن الموقع الأصلي للمسجد كان يشغله سوقا للنسيج. فقد أصابه الخراب في القرن 14 ثم دمر كليا خلال زلزال لشبونة سنة 1755. وقد أفادني أهل سلا أنهم عثروا تحت الأرض على بقايا بنايات قديمة وبعض القطع العظمية ، لكنهم كتموا هذا الاكتشاف مخافة أن تدخله سلطات الحماية الفرنسية ضمن "المآثر الوطنية". ويشير ابن علي أيضا أنه قبل 1912 تم العثور تحت رياض منزل القاضي ابن خضراء، على قبور ذات شاهدات جميلة ومنقوشة، لكن سرعان ما ردمت من جديد بدعوى وجودها بمحل خصوصي. وقد ظلت هذه الخرابات عالقة بذاكرة السلاويين. فيقال أن سلا ضربها الزلزال ست مرات وأن الهزة السابعة قد تكون مدمرة إن هي حصلت. وبالفعل كان زلزال لشبونة لعام 1755 قويا جدا بحيث عرض سلا لمد بحري هائل.

أنظر ، الإتحاف الوجيز ، ص:44 ، وأيضا :

Musée des Antiquités, Rabat, Dossier 5. Salé A à I . , Villes et tribus du Maroc n Rabat et sa région , Vol I, P.101.

21) — يرى ابن علي أن مسجد داوود جامع صغير ، من الصنف الذي يوجد في الغالب بالقرب من الأسواق لتمكين الباعة من أداء صلواتهم من غير أن يتغيبوا طويلا عن حوانيتهم. أما مسجد الشهباء فكانت تقام به صلاة الجمعة. ويدل موقعه على أن عددا كبيرا من الناس فضلوا الصلاة هناك وتركوا المسجد الأعظم للقاطنين بوسط المدينة . ومعلوم أن مسجد الشهباء قد رمم وفتح من جديد في وجه المصلين بعد مجيء الفرنسيين بقليل، وذلك لنفس الغاية، أي للتخفيف عن المسجد الأعظم. راجع الإتحاف الوجيز، ص:44 .

22) — ربما كانت هذه المحمة التي استهدفت مدينة سلا، ردا على مساندة أهلها لمحمد بن هود الهادي . أنظر

B. Meakin , the Moorish Empire, New-york , 1899, p. 88 s.

23) — لافي بروفنسال ، وثائق ،ن.م.، ص:106 ،199 ، 205 — 206، ومقالته حول "الرباط" بموسوعة الإسلام ج: 1.

24) ـــ مدن المغرب وقبائله ، ج 1 ، ص: 20. ـــ أنظر أيضا ميكن ، ن.م.ص: 61.

25) ـــ الإتحاف الوجيز ، ص44.

26) ـــ يكتسي هذا المظهر أهمية بالغة لدى السلاويين إلى اليوم. فقد قدم لي أحد الأصدقاء، وهو من عائلة كبيرة بالمدينة، ما كتبه أبوه محمد عواد، الملقب بـ"القطب"، في يوميته، عند مطلع هذا القرن:"رأيت كتابا يقول أن الرجل المدفون بالمسجد هو أبو محمد عبد الحليم للرابط الغماد، وأنه توفي عام 590هـ / 1193م". ويشير إليه ابن علي ، في ترجمته للرجال الأفاضل، تحت اسم "المرسي"، نسبة إلى مدينة مرسيه الإسبانية، ويقول عن عجائبه أنه كان يرى الرسول مناما ويعلم بالموت لبعض الناس... ـــ الإتحاف الوجيز، ص: 77.

27) ـــ ذكره صاحب الإتحاف الوجيز، ص19.

28) ـــ أستعمل هنا كلمة "Saint" بمعزل عن المفهوم المسيحي. وأشير بها إلى لفظين عربيين منفصلين:1) "السيد" جمع "سادات"، أو "سيدي" بالدارجة، الذي يتبعه الاسم. وهو يرمز إلى النسب الشريف2) ـــ الولي، جمع أولياء. وهو لفظ يحيل إلى التقرب من الله عبر قوة الاعتقاد الديني. والجدير بالذكر أن دلالتهما تتضمنان فكرة القوة أو السلطة. لكنها سلطة روحية تكمن في فاعلية البركة، أي القدرة على منح البركة للآخر. وفي الاستعمال العامي ، سواء تعلق الأمر بالتوجه إلى الشخص أو بالإحالة إليه، غالبا ما ينعت لفظ "سيدي" كل أصناف الأولياء. في حين تظل كلمة "مولاي" لصيقة بالمنحدرين من آل البيت. غير أن جل الأموات التي تحظى قبورهم بالتوقير يحال إليهم بلفظ "سيدي" مهما كان نسبهم ويعرف بالتالي القبر ب"السيد". والملاحظ، تختلف معاني هذه الكلمات باختلاف شرائح المجتمع في المغرب كما في الخارج بحسب تباين ظروف إشارتها .

للمزيد من المعطيات حول هذه المفاهيم في إطارها المغربي ، أنظر :

E. Westermarck , Ritual and Belief in Morocco, London, 1926 , 2 vol., G.E. Von Grunebaum, Medieval Islam : A Study in Cultural Orientation, Chicago, 1946, pp. 138 – 139.

29) ـــ "ابن العباس". ويسميه ابن علي "أبو العباس". وقد جرت العادة في الدارجة المغربية استعمال لفظ بل عوض ابن، وبول عوض أبو.

30) ـــ مدن المغرب وقبائله ، ج1 ، ص: 221 ، التادلي ، التشوف إلى رجال التصوف، الرباط 1958 ، ص: 144-145 ،الإتحاف الوجيز ، ص: 75. يرى ابن علي أن المسجد الذي يحمل اسم العباس بسلا قد يكون في الأصل، كما يدعي الناس، مدرسة قرآنية، كان قد درس فيها الولي.

31) ـــ يتعلق الأمر "بالبديل"، جمع "أبدال" أو "بدلاء"، على النحو المتعارف عليه لدى الصوفية. أنظر:

Archives Marocaines, vol. XIX, 1913 , p. 237.

32) ـــ مدن المغرب وقبائله ، ج 1 ، ص: 221 ، التشوف ، ص: 145—144 ، الإتحاف الوجيز ، ص: 75.

33) ــ للمزيد من التفاصيل حول الجاذبية الدينية التي مارستها سلا إزاء أحوازها ، أنظر : بـولون، ن.م.. ــ وبخصوص موسم سيدي موسى ، راجع ، الأرشيفات المغربيـــة ، ج 3 - 1905، ص: 322 وما تلاهـا ، وج 8 ، 1906 ،ص: 149 - 150

34) ــ الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، نشر دوزي وجوجي ، طبعـة ليدن ، 1866 ، ص: 72-73

35) ــ يرى ديلفي ، استنادا إلى المخلفات الأثرية ، أن سلا كانت خلال هذه الفترة مركزا هاما لصناعة الخزف:

A. Delphu, « Notes sur quelques vestiges de céramiques recueillis à Salé » ; in Hesperis, 1955, pp. 129 – 152.

36) – Cf. Kruger, « Early Genoese Trade wih Atlantic Morocco » , in Medievalia et Humanistica, III , 1945, pp. 7 ff.

الفصل الثالث

العصر الذهبي

المرينيون (1216 – 1465)

شهدت مدينتا الرباط وسلا حوادث دامية قبل استقرار الحكم المريني بهما عام 1260. فمع انهزام الموحدين، دخلت الرباط، التي كانت قد تضررت كثيرا من جراء المعارك، مرحلة من النسيان لمدة تناهز أربعة قرون ونصف. ثم إن شالة التي أصابها الإهمال منذئذ صارت في عهد الدولة المرينية "حرما" ومقبرة موقرة لسلاطينها(37). أما سلا، فقد تعرضت لهجمة من طرف نصارى إسبانيا سنة 1260، إبان بداية حكم بني مرين. وهي الهجمة الأولى والأخيرة من نوعها التي عرفتها المدينة إلى حدود عام 1912. فقد كان الحاكم المريني منهمكا في صراعاته ضد عمه، السلطان في وقت استغل فيه الإسبان تعاقدهم التجاري مع الحاكم المتمرد، وكثر عددهم بمرسى المدينة، هكذا، قاموا بأمر من الملك الفونسو في يوم عيد الفطر من سنة 1260 والسلاويون محتفلون بالعيد، بعملية إنزال بالمدينة وهاجموها بقوة. استمر ذلك 14 يوما، فأحرقوا ونهبوا وقتلوا العديد من الناس وأسروا خلقا كثيرا. فكان رد فعل السلطان أبو يوسف أن قصد المدينة ورفع الحصار القشتالي عنها، ثم سعى، بواسطة بعثة أرسلها إلى إشبيلية، في فداء نحو ثلاثة آلاف أسير بما فيهم قاضي سلا(38).

تطور المدينة : العمارة والتجارة.

عندما استرجع السلطان المدينة كان أول أعماله بناء السور المقابل للوادي. حقا أن الحاكم الموحدي، الناصر، كان قد أصلح السورين الشمالي والشرقي في بداية القرن الثالث عشر لكن ظلت الجهة الجنوبية غير محصنة. لقد مثلت الهجمة الإسبانية لسنة 1260 أول تدخل أجنبي في أرض المغرب منذ مجيء الإسلام. من ثم كان على البلاد ومراسيها، وخصوصا مرسى

سلا، أن تدرك المخاطر الواردة من الخارج وتستفيد في نفس الوقت من علاقاتها معه.

بعد هذا الحادث بقليل، شيد السلطان المريني أبو يوسف "دار الصناعة". وهي ترسانة بحرية توجد بالزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة، في الموقع الحالي للحي اليهودي، المعروف بالملاح. ويمثل باب لمريسة صرحا عظيما لهذه المنشأة، يشهد على بهاء المدينة وعبقرية مهندسه الإشبيلي، ابن الحاج. كانت هذه الترسانة بمثابة حوض مائي متصل بالنهر بواسطة قناتين تمران تحت الباب. هنا بُنيت خلال القرنين 13 و14 السفن التي وجهت للهجوم على سواحل إسبانيا.

وعلى الرغم من هذه المناوشات البحرية بين المسلمين والنصارى، استمرت العلاقات التجارية مع أوربا عبر البحر وتطورت. فقد كان للتجارة أثر بليغ على الحياة الاقتصادية في سلا، منذ أواسط القرن 12 على الأقل، وتحديدا بفضل الذهب الذي كانت تجلبه إليها القوافل من السودان. تمت غالبية الرواج مع تجار الجمهوريات الإيطالية، وبخاصة الجنويين. فقد كانوا يشترون من أسواق المدينة الذهب والجلود والشمع والعسل ويبيعون في المقابل سلع عديدة، في طليعتها النحاس. أما القوافل الصحراوية فكانت تقتني المواد الأجنبية المعروضة في أسواق سلا وتذهب بها إلى باقي شمال إفريقيا. هذه المواد الواردة من إيطاليا وكاطالونيا وأراغونيا عبر سفن إشبيلية وفالنسيا وبرشلونة، هي : زيوت الزعفران والأقمشة الملونة والكتان الإيطالي والحرير والخشب المصنع والقصدير والذهب والفضة في شكل قطع صغيرة وسبائك، وأيضا الأسلحة والمجوهرات والأحجار الكريمة. أما في اتجاه أوربا فقد صدر ميناء سلا

الكتان والنيلة والقطن والحبوب والفواكه الجافة ومواد أخرى مثل الحلفا والقرمز ومسحوق الدّباغة. لقد وفرت الرسوم الجمركية المفروضة على الرواج التجاري قسطا هاما من مداخيل الدولة المرينية(39).

ازدهار الثقافة :

ينبع التاريخ الثقافي للمغرب، كما يحتفظ به المؤرخون من حياة فقهائه الكبار والمعالم المشيدة لاقتفاء آثارهم. لقد حظيت سلا بوجود علماء ومنشآت على السواء. أفخمها المدرسة العظمى التي بنيت في أوج بني مرين سنة 1340، إبان حكم السلطان أبي الحسن(40). هذه المدرسة أو " لمْدرسة"، كما يسميها المغاربة، هي عبارة عن مأوى للطلبة الواردين من خارج المدينة. يقيمون فيها ويأكلون. لما دروسهم فيأخذونها في المسجد المجاور. وتقع أهم مدرسة بسلا بحومة الطالعة، عند قدم الجامع الكبير، على يسار مدخله الرئيسي، في موقع كان يشغله، وفق ما يقال، قصر بني العشرة. تتكون هذه المؤسسة من فناء مستطيل مفتوح، قياسه 24 قدم طولا و12 عرضا، يتوسطه حوض من رخام وتحيط به أربعة أروقة تعلوها غرف صغيرة للطلبة، من طبقتين. وينفتح أحد هذه الأروقة على الفناء، وهو مسجد للصلاة به محراب وتعلوه قبة. وقد رصعت هذه المدرسة بزخارف قرمدية ونقوش على الجبس والرخام والخشب في غاية البهاء(41).

عند مدخل المدرسة، على اليسار، تظهر أشعار منقوشة على الجبس، تقول:

لعمري لقد مارسته شتى المجالس ومازجته في الآفاق جل المدارس
وحدثته عن حمص وبغداد وانتهت إلى مسمعي أنباء كل ممارس

وأنبأني الركبان عن كل بلدة من المغرب الأقصى إلى أرض فارس
فما لاحظته عيني ولا شق مسمعي كهذا الذي أزرته بكل منافس(42)

مارست المدرسة نشاطها تحت رعاية إدارة الأوقاف بواسطة المداخيل الواردة من الأملاك المحبسة عليها، والتي توجد داخل المدينة وخارجها. لقد ازدهرت المدرسة إبان العهد المريني ، لكن، اعتراها الخلل بعد ذلك. في نهاية القرن 18 قام قاضي سلا، محمد بن حجي القاسم زنيبر، بترميمها واستؤنفت الإصلاحات سنة 1864 على يد ناظر الأحباس محمد بن عبد الهادي زنيبر، باقتراح من أحد كتابه، المؤرخ أحمد بن خالد الناصري. وأخيرا عملت مصلحة الفنون الجميلة التابعة لإدارة الحماية الفرنسية بتصنيف المدرسة ضمن المآثر الوطنية وواصلت أشغال ترميمها.

بفضل رعاية أبي الحسن المريني، تزودت المدرسة والجامع الأعظم بالماء الضروري للوضوء من عيون البركة شرق المدينة على مسافة أميال. يتعلق الأمر بقناة عالية هائلة تعرف باسم الأقواس، نسبة إلى أقواسها الثلاثة، كانت قد بنيت لهذا الغرض على نحو ميل تقريبا من جهة الشمال. كانت القناة بمثابة سور ثان يحيط ببساتين المدينة ويحميها هي والطريق الرئيسية الرابطة بين سلا وطنجة، التي لا تزال إلى اليوم تمر تحت أقواسها(43).

وتشهد بقايا مآثر أخرى على عظمة بني مرين وأهمية سلا كمركز للمعرفة والتقوى. في طليعتها المدرسة العجيبة التي تعرف أيضا بالبوعنانية، نسبة إلى بانيها، السلطان أبو عنان، أو بالمارستان. وهي في الوقت ذاته مستشفى صغير ومدرسة للطب، أقيمت في الفندق الذي كان يقطنه أبو موسى، قبل قرنين

من الحكم المريني. وهو المحل الذي تشغله اليوم دار القاضي. وتظهر صورة كئيبة التقطت سنة 1927 هيكل الباب المتهدم للفندق بزخارفه وفسيفسائه ونقوش أخشابه(44). إنه الصرح الذي أيقظ أفكار ابن علي عند نهاية القرن التاسع عشر حول التدهور الفكري للمغرب ومسبباته : " كان سوق الطب كسائر المعارف والعلوم رائجا بأقطار المغرب لاعتناء الملوك به. ولما تقهقر حال الدولة المرينية وضعف حال ملوكها أخيرا، بطل العطاء وانقطع الإمداد فهجر المارستان لذلك، ولاسيما كونه في حارة اليهود [أي باب احساين التي شكلت الحارة الأصلية ليهود سلا] ... فأشرف بناؤه على الخراب... وأعيد لحالته الأولى كما كان فندقا وبقي بابه شاهدا لحسن بنائه"(45).

ونجد خارج أسوار سلا، في اتجاه الشرق، على بعد 600 متر تقريبا، على الطريق المؤدية لمكناس، بقايا مآثرة أخرى تعود إلى عهد أبي عنان. إنها زاوية النساك. شكلت هذه الزاوية التي بنيت عام 1356 داخل مقبرة سيدي بلعباس، ملاذا للمتعبدين من الفقراء والسائلين والمنزوين والزوار والغرباء. وتشير المصادر أيضا إلى أن الزاوية كانت تقع بقرية تدعى صبرة كانت تسكنها جماعة من الأشراف(46).

لقد ارتبطت سمعة سلا، بكل تأكيد، بالعرفان والصلاح. يظهر ذلك بجلاء، في المقام الأول، من خلال شخصية الأديب والسياسي لسان الدين بن الخطيب الذي هجر غرناطة بعد أن شغل بها منصب وزير، واستقر بسلا لمدة ثلاث سنوات ، 1361 –1358 . فقد خلف شهادة ثمينة في حق سلا. يقول عنها إنها كانت جامعة بين البداوة والحضارة. فمزارعها تنتج القطن والكتان والعنب، وضواحيها تتوفر على مراعي جيدة وحقول

خصبة، وأسواقها تمتلئ بأطيب الشهوات، بـــل وحتـــى برقيـــق الحبشة، ومدارسها ومارستاناتها وزواياهـــا وأضرحتـــها تجلـــب قاصدي المعرفة والتأمل والعزلة(47). ومن أشهر الأبيات الشعرية التي نظمها ابن الخطيب حول المدينة، تلك التي تتصل بمعنـــى الأصل العربي لكلمة سلا :

ولا نسختت كربي بقلبي سلوة   فلما سرى فيه نسيم سلا . سلا(48).

1 - ابن عاشر الطبيب : الصوفية في ســـلا :

ثمة أشعار أخرى يرددها أهل سلا :

سلا كل قلبه غير قلبي ما سلا   أيسلـــو بفاس والأحبة في ســـلا

بها خيموا والقلب خيم عندهم   فأجروا دموعي مرسلا ومسلسلا

نظم هذه الأشعار المعبرة عن حس الأهل، عـــن الإرتبـــاط بسلا وناسها، الحاج أحمد بن محمـــد بـــن عمـــر بـــن عاشـــر الأنصاري، المعروف لدى عامة النـــاس بســـيدي ابـــن عاشـــر "الطبيب"، الولي الشهير، دفين سلا، وسلطان صلحائها، حسب مـــا يعتبره البعض من باب الخطأ. ولد ابن عاشر في شمينة من بـــلاد الأندلس في أواخر القرن 13 تقريبا.عاش ودرس في مدن عديـــدة وحج إلى مكة قبل استقراره بسلا عام 1356.

كانت سلا، على غرار فاس، قبلة للصوفية خـــلال القـــرن الرابع عشر. لقد استقر ابن عاشر أول الأمـــر بشـــالة، مقـــبرة المرينيين، حيث توجد زاوية الحاج عبـــد الله اليـــابوري، وعلـــم القرآن هناك. ولما توفي شيخه انتقل للعيش بسلا في زاوية أبـــي زكرياء الكائنة بقرب الجامع الأعظم، حيث تعبد وكســـب رزقـــه من استنساخ كتب الحديث. واشترى فيما بعد منزلا بـــإزاء بـــاب معلقة وبستانا صغيرا خارج باب سبتة. هنالك التزم الولي خلوة

تامة. لكن سرعان ما بدأ الأتباع يردون من مدن أخرى للتقرب منه، منهم
ابن عباد الرندي الذي وجد بسلا راحة بدنية وروحية لم يحصل عليها بفاس لكثرة الفتن بها(49).

هكذا اتسعت شهرة ابن عاشر بسرعة. فبدأت ترد على المدينة جماعات من الزوار من مكناس وفاس للتبرك بالولي والتعبير له، حسب إحدى شهادات معاصريه، عن اعترافهم بـ" تفوقه الروحي البيِّن"(50). وتروي النصوص أن ابن عاشر كان شديد الاشمئزاز من تملق قاصديه. لقد ذكر ابن الخطيب مدى صعوبة لقاء للولي بسبب كثافة هيبته. فقد رآه ملازما للقبور في الخلاء، رث الهيئة، مطرق اللحظ، كثير الصمت شديد العزلة(51). وبالفعل، ترسم أقوال أتباعه صورة ولي مهيب، كثير الخشية، لايجرؤ المرء على التحدث إليه إلا إذا بادر هو إلى ذلك. لكنه كان "ولي الله" في نظر الناس، عارفا بأمور الدين دون زيادة أو نقصان، وهي من الشروط البينة لشريعة الإسلام(52).

وتعكس أخبار التاريخ حول فشل أبي عنان في زيارة ابن عاشر، أهمية هذه الخصال الروحية. فقد وقف السلطان ببابه مرارا لكن الولي أصر على رفضه اللقاء به. غير أنه قبل في الأخير أن يرسل إليه كلمة ذكَّره فيها بكل بساطة بواجباته الدينية. فاكتفى السلطان بذلك وطلب منه فقط أن يدعو له بالنصر في جهاده ضد نصارى إسبانيا وبالحج إلى بيت الله الحرام(53).

تختلط في هذه التراجم للوقائع بالأساطير. وما حياة ابن عاشر إلا نموذجا لذلك، حيث أن الأمور التي تسردها كتب المناقب المغربية، حتى وإن كانت بقلم المعاصرين للأولياء

تنحو إلى إضفاء المثالية على حياة هؤلاء. ومع ذلك تمنحنا نظرة عميقة حول القيم الاجتماعية، الحقيقية أو المزعومة وأفعال الناس وطباعهم(54). لكن، يبقى تفسير المكاشفات ضروريا.

2 ـــ الأولياء والتصوف :

يشير التعبير المجازي للقرن 14، بصدد كرامات ابن عاشر مثل إزهار الورد في الغصن الجاف وسيلان العسل من الصخر إلى الإعتقاد بحدوث عجائب نتيجة التبرك بقبر الولي والتنسك بضريحه. يستلزم الحديث عن الكرلمات التمييز بين تصور الخاصّة من سكان الحاضرة، من جهة وعامة الناس، من جهة ثانية، الحضر منهم والبدو، بما فيهم النساء. فقد ينصت الفقيه إلى ما يروى حول هذه الكرامات فيتقبلها دون جدال أو ينفيها. لكنه لا يبتكر مثل هذه الروايات أو يرددها أو يرفضها علانية. فهو يؤمن بالقوة الإلهية اللامتناهية وقدرتها على كل شيء. هكذا يسرد ابن علي حياة ابن عاشر وفق ما تقدمه النصوص المكتوبة، ويضيف فقط، دون زيادة، بأن كرامات هذا الولي وعجائبه لا زالت تحظى بمكانة لدى أهل سلا(55).

إنها كرامات وعجائب لازالت حية إلى اليوم في المتخيل الجماعي. ويبدو أن شهرة ابن عاشر كطبيب تعود في الأصل إلى رواية حول أحد صلحاء الرباط، سيدي التركي، ومفادها أن تركيا جوهريا – وفي رواية أخرى ، صياد مرجان، كان يعاني في القرن 18 من انحصار لؤلؤة بداخل أنفه، وأنه زار أشهر الأطباء دون جدوى، وفي الأخير حج إلى قبر سيدي ابن عاشر. فلما وصل إلى المقبرة ووقف على تواضع قبره استخف به وقال :"كيف لي أن أثق في قبر مهجور وقد فشل في علاجي أطباء

كبار". فما أن فاه بهذه الكلمات حتى أخذته عطسة، فسوحت أنفه من الحجر المذكور. فبنى له ضريحا. بعد ذلك بقليل، ظهر له الولي في منامه ودعاه إلى التنسك. هكذا أنهى حياته وليا صالحا وصار قبره بالرباط مزارة يتبرك بها بالخصوص البحارة والصيادون(56).

منذ القرن 17 أصبح قبر سيدي ابن عاشر قبلة للزوار. أما ضريحه، بقبته العظيمة وجناحيه، فقد بناه السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل سنة 1733، في الركن الأيسر من المقبرة التي تحمل اسم الولي. وقد عرف الضريح سلسلة من الإصلاحات بعد هذا التاريخ. سنة 1844 جددت القبة بأمر من السلطان مولاي عبد الرحمان، ثم وسعت أجنحته ببناء بيوتات إضافية على نفقة أحباس سلا. واستمرت هذه الترميمات في نهاية القرن 19 بفضل هبات بعض أعيان المدينة، أمثال الأمين عبد الهادي زنيبر والتاجر الحاج أحمد الصابونجي. وازدادت زيارة الضريح عندما أصبح به مارستانا لعلاج المرضى والمجانين. هكذا في الوقت الذي كانت فيه بيوتاته تأوي المرضى، كان بهوه الرئيسي يستقبل عددا كثيرا من الزوار يوميا من داخل المدينة وخارجها(57).

ومن جهة أخرى احتضن الضريح موسما سنويا لترتيل الأذكار وتنظيم أهازيج "الحضرة"، في اليوم التاسع من عيد الأضحى. أما رعاة الضريح فهم أولاد اعمار الذين يدعون الانتساب إلى الولي أو إلى أحد أتباعه. وتعترف السلطة بحقوقهم في الهدايا التي يأتي بها الزوار. فكل رجل متزوج له نوبته في رعاية الضريح والاستفادة من الزيارات. وتعتبر عائلة أولاد اعمار من أعرق عائلات سلا وأشدها احتراما. ويعتقد بعضهم امتلاك بركة الولي. ويتصاهر عدد كبير منهم مع الحسونيين، حفدة أحد

أتباع سيدي عبد الله بن حسون، " سلطان سلا".

تكتسي كرامات سيدي بن عاشر صبغة أسطورية. فبغض النظر عن شفائه لذوي العمى والمقعدين والمجانين، يعتقد الناس أن بركته تهدأ أمواج البحر. لذلك كان قراصنة سلا يدخلون المرسى بسفنهم وغنائمهم وأسراهم وهم في ثقة من أمرهم. وهو نفس الاعتقاد الذي فُسِّر به عجز البحرية الفرنسية سنة 1844 في الاقتراب من سلا بسبب هيجان البحر، بعدما كانت قد قصفت طنجة والصويرة.

لقد تحولت الشخصية التاريخية لسيدي بن عاشر من أسلوب صوفي، على النحو الذي نلمسه في القرن الرابع عشر المريني إلى اعتقاد استشفائي وحمائي خصَّت به المدينة نفسها خلال القرون الأربعة الموالية. وهو تحول يعكس بوضوح التغير الكبير الذي حصل في المغرب إبان هذه الفترة. فبعد مرور بضع سنوات على وفاته، سنة 1362 ، عاد أحد أتباعه إلى سلا فوجدها "قفرا"، دون حركة فكرية أو روحية، دون كتب أو مواسم، دون أصدقاء أو أحبة. فقد تراجعت أوساط الصوفية واضمحلت الأنشطة الدينية في المدينة(58).

****

37) ـــ تتمثل مصادر هذه الفترة ، بصورة أساسية، في كتاب العبر، ج4 ، وروض القرطاس لابـــن أبي زرع، نشر بومي، باريس 1860. راجع أيضا :

J. Caillé , la ville de Rabat jusqu 'au Protectorat français Paris, 1949 T.I , p. 187s.

38) – B. Baretta, « la toma de Salé en Tiempos de Alphonso El Sabio », in Al-Andalus, VIII, 1943, pp. 89 – 128.

أنظر ما كتبه هنري تيراس حول هذه الدراسة بمجلة هسبريس، 1944، ص: 92—87 .

39) ـــ أنظر مدن المغرب وقبائله، ج 1 ، ص: 115 وما تلاها. ـــ يشـــير عبـــد الله العـــروي في كتابـــه "الايديولوجيا العربية المعاصرة"(طبعة باريس، 1967 ، ص: 78 و ص : 5) إلى أطروحة مرقونة حول العلاقات التجارية للمغرب ما بين القرن 10 والقرن 15، يبين صاحبها استمرار تدفق كميات هامة من ذهب الســـودان إلى المغرب حتى آخر القرن 15، حيث يسلك بمراكش ويصدر عبر مدينة سلا في اتجاه موانئ آراغونيا وإيطاليـــا وحسب المصادر الجنوية كانت سلا وآسفي تمثلان أهم الموانئ لتجارة الذهب خلال النصف الأول من القـــرن 13. أما إيف لاكوست فيؤكد على فقدان المغرب تحكمه في مسالك الذهب والتجارة مع السودان خلال القرن 14. وأما المصادر التي نتوفر عليها نحن فلا تشير إلى تقلب التجارة بين سلا والسودان. حول هذه القضايـــا، أنظر : آدم، ن.م. ص: 45 ، ص52 ، لاكوست، ن.م. ص108 وما تلاها.

40) ـــ أنظر لافي بروفانسال ، نخب من كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر المولى أبي الحسن، لابن مرزوق هسبريس، 1925 ، ص 69، ص: 3.

41) ـــ للمزيد من التفاصيل حول المدرسة مع بيانات وصور ، أنظر :

Ch. Terrasse, Medersas du Maroc, Paris, 1927.

42) ـــ الاتحاف الوجيز، ص : 89.

43) ـــ يشير الناصري في هذا الشأن إلى حديث طريف كان قد أجراه مع أحد القنائنة بسلا، أكد له أصـــل هذه القناة. وقد شبه المؤرخ هذا النظام الهندسي بالحنايا القرطاجية، أنظر الاستقصا، طبعة القاهرة، 1894 ، ج 2 ، ص: 86.

44) ـــ شارل تيراس، ن.م. اللوحة 11.

45) ـــ الإتحاف الوجيز ، ص: 54.

46) ـــ نفسه ، ص 51، مدن المغرب وقبائله، ج1 ، ص 213—211 . أنظر أيضا :

J. Meurié, « La Zaouiât en Noussak , une fondation mérinite aux abords de salé », in Mélange d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulan ,II , Hommage à G. Marçais », Alger, 1957, pp. 129 – 146.

47) يتعلق الأمر هنا بزاوية الشيخ أبي زكريا المجاورة للمسجد الأعظم، التي اشتهرت بمكتبتها . وهي الزاويـــة التي أصابها الإهمال فصارت عند مطلع القرن تحوي روضا ونولا وكتابا قرآنيا. ويقول ابن علي في وصفه لظاهرة

الصلاح التي اشتهرت بها المدينة :" بسلا زوايا كثيرة وأضرحة كبيرة شهيرة لمشايخ عظام وأولياء كرام"(الإتحاف الوجيز، ص53).

48) ـــ الاستقصا، ج2 ، ص: 112 وما تلاها. — حول ترجمة ابن الخطيب وكتاباته المتضمنة لمقارنة بين مدينتي سلا ومالقة، راجع العبادي، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس»، الإسكندرية، 1958. فرغم الأبيات الشعرية التي قالها في حق سلا، كان ابن الخطيب يفضل مالقة. لذلك نظم ابن علي، باعتزاز ، أرجوزته "إتحاف أشرف الملا"، دفاعا عن المدينة ضد افتراء الكاتب الأندلسي الشهير.

49) - Cf.P. Nwyia, Ibn Abbad de Ronda (1332 – 1390) , Beyrouth, 1961, p.62.

50) ـــ نفسه، ص:56.

51) ـــ الاستقصا، ج2 ، ص: 114 — 115.

52) ـــ بول نوية ، ن.م.، ص: 55 وما تلاها.

53) ـــ سنناقش فيما بعد الموقف الازدواجي لكبار الأولياء والفقهاء السلاويين إزاء السلطة.

54) ـــ يرى بول نوية في ذلك نموذجا للشخصية الصوفية.

55) ـــ الإتحاف الوجيز، ص: 55.

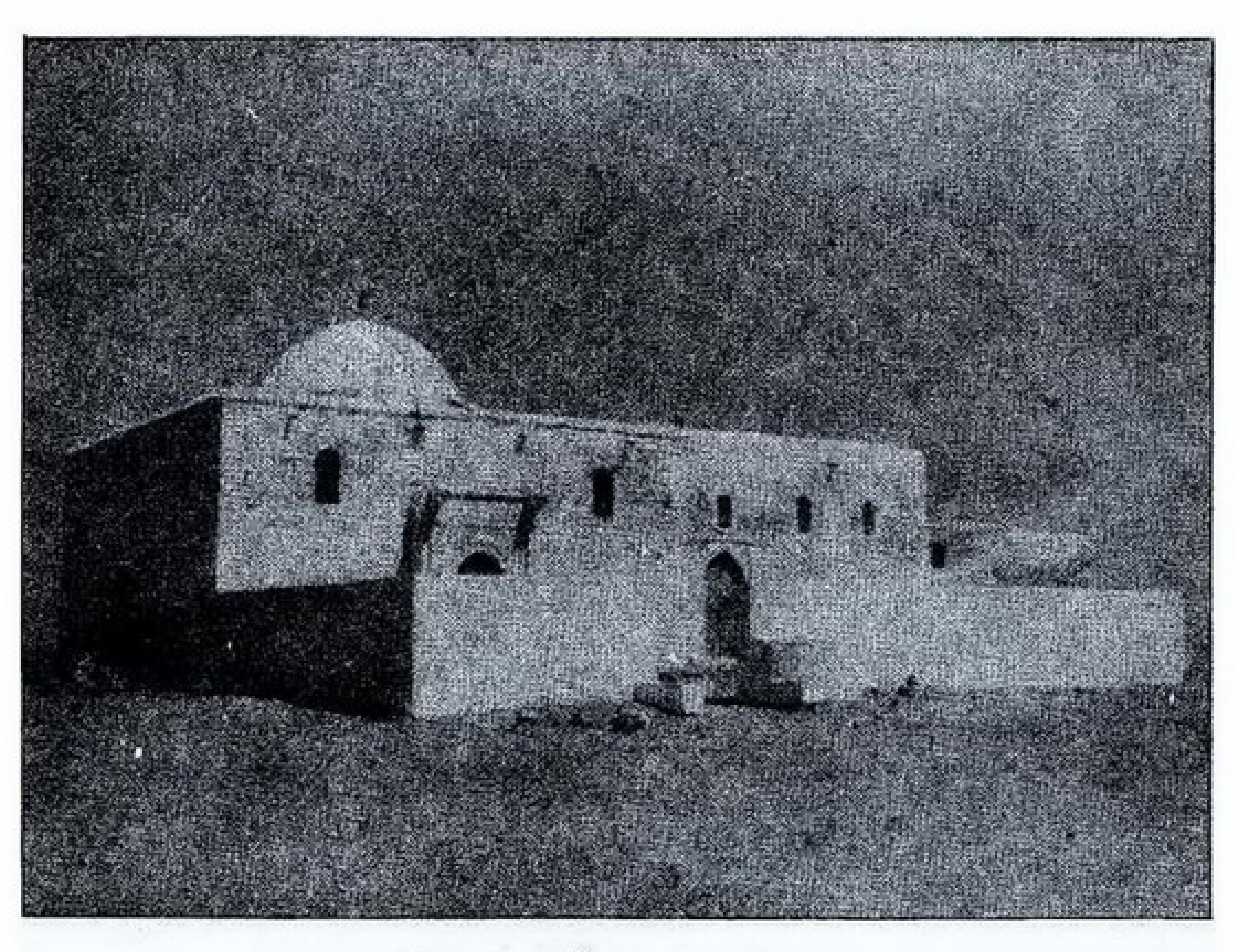
56) ـــ لا تزال هذه الحكاية متداولة في أوساط سلا حيث جمعت حولها روايات متعددة أثناء البحث ، ويوجد البعض منها في P. Marty , "la zaouia de Sidi ben Achir à salé », in Revue des études islamiques, VII, 1933, pp. 143 – 152.

L. Brunot, la Mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, Paris, 1920, p. 55.

57) ـــ تقول الدكتورة لوجي التي اشتغلت سنين عديدة بالمدينة في أوائل الحماية الفرنسية أنها لم تر قط أناسا على درجة من البؤس كما هو الحال لدى مجانين سلا. أنظر :

Legey , Essai de folklore marocain , Paris , 1926, p. 156.

58) ـــ بول نوية، ن.م. ص: 70 — 71 ، 135 . ـــ يدخل هذا الجمود ضمن التراجع العام الذي عرفه الغرب الإسلامي والذي عاشه ابن خلدون وفسره في "المقدمة". وقد عرض إيف لاكوست في دراسته السابقة الذكر ، تحليلا إجماليا للعوامل الاقتصادية التي تحكمت في هذا الانهيار.



ضريح سيدي أحمد بن عاشر

الفصل الرابع

أصالة سلا

القرن 15 - القرن 18

رخاء المرسى:

ظل مرسى سلا، في أواخر الحكم المريني وخلال عهد الوطاسيين ، أي من أواسط القرن 14 إلى أواسط القرن 16، أهم مركز تجاري ساحلي في المغرب بالنسبة لتجار بلدان البحر الأبيض المتوسط وفلامانيا وإنجلترا. فقد اشتهر أهل سلا بالتجارة. كانوا يبيعون التوابل والقطن والأقمشة والعاج والشمع والعسل والجلود والزرابي ويشترون المنتجات المصنعة من جينوة وكاطالونيا والبندقية، والأثوبة من إنجلترا، والأقمشة الصوفية من فلامانيا والسكر من إسبانيا(59) . ويشير تقرير مثير بقلم أحد التجار الفرنسيين، إلى سفارة بعثها فرانسوا الأول سنة 1532 إلى السلطان بفاس ليلتمس منه فتح المراسي المغربية في وجه التجارة الفرنسية. وهكذا أخذت سفن مدن جنوب فرنسا مثل روسيون وبايون تتاجر بصفة منتظمة مع مدينة سلا(60).

ويقدم الحسن الوزان وصفا قيما حول سلا في القرن السادس عشر : "بيوتات سلا مبنية على طريقة القدماء، مزينة كثيرا بالفسيفساء وأعمدة الرخام، ومساجدها كلها في منتهى الجمال والزخرفة. وتنطبق هذه الأوصاف أيضا على الدكاكين الواقعة تحت أروقة كبيرة جميلة. وعندما يمر المرء أمام عدة دكاكين يجد قوسا مبنيا على ما يقال ليفصل بين حرفة وأخرى.

استنتج من ذلك أن سلا تملك من الترف والبذخ ما يضفي عليها طابع مدينة عريقة في الحضارة، بالإضافة إلى أن ميناءها الجيد مهبط التجار المسيحيين من مختلف الجنسيات [...] يستعمل كميناء لكل مملكة فاس.

وعلى الرغم من سرعة استرجاع سلا [من هجمة قشتالة عام 1260] فإنها بقيت منذئذ أقل سكانا وأهمية. وتوجد في المدينة

كلها، لاسيما قرب السور المحيط بها، دور عديدة خالية تحتوي على أعمدة جميلة جدا ونوافذ من الرخام مختلفة الألوان، لكن الأهالي اليوم لا يقدرونها حق قدرها.

[وفيها] الكثير من البساتين وكذلك الحقول التي تنتج كمية عظيمة من القطن. ومعظم سكان المدينة حائكون [...] وتصنع كذلك بسلا كمية وافرة من المشط تباع في جميع مدن مملكة فاس، إذ توجد بجوار المدينة غابة عامرة بأشجار البقس وغيرها من الأنواع الأخرى العديدة الصالحة لهذا العمل.

ويعيش الناس الآن في سلا عيشة طيبة جدا، إذ يوجد فيها حاكم وقاض وعدد من الموظفين الآخرين لأمثال موظفي الجمارك وضرائب المعاملات التجارية، لأن عددا كثيرا من التجار الجنويين يأتون إليها ويعقدون فيها صفقات هامة، ويلقون من الملك عناية خاصة لأن تجارتهم تحقق له أرباحا ضخمة"(61).

تظهر سلا من خلال هذا الوصف كمدينة منظمة ونشيطة وثرية ذات مؤهلات تجارية تفوق بكثير مزاياها الثقافية والروحية والجمالية. ومع ذلك، عرفت سلا في القرن 16، على غرار باقي نواحي المغرب، نفسا دينيا وإلهاما جديدين.

الصوفية : سيدي عبد الله بن حسون (ت 1604)

الولي – القطب.

يرجع الفضل في نشأة العديد من المدن بشمال إفريقيا في القرنين 15 و16 إلى شخصيات دينية. فقد اقترن انتشار الصوفية في هذه المرحلة بالجهاد ضد الغزو الأوربي بالسواحل وانبعاث القوى الحيوية والقيم القروية تحت راية الإسلام(62). فكيف كانت إذا تجربة سلا خلال هذه الفترة ؟

ولد سيدي عبد الله بن حسون في بلدة سلاس، شمال فاس، في مطلع القرن 16. درس في فاس على يد شيوخ كبار كالعلامة عبد الواحد الونشريسي.. فعاد إلى سلاس وهو فقيه كبير، لكن الصراعات القبلية جعلته يغادر موطنه ويلتجأ إلى سلا. ويقال أنه بمجرد استقراره هناك جاءه وفد من سلاس يلتمس منه العودة إلى بلدته. فسار بهم إلى شاطئ البحر وملأ من مائه كأسا وسألهم عن السر في هيجان ماء البحر وركوض الماء بالكأس. فأجابوه : لأن ماء الكأس افترق عن البحر، فقال: كذلك الشأن بالنسبة لي، فقد وجدت في الانتقال الراحة والهناء ولا أريد الرجوع إلى الفتن. هكذا استمرت سلا في جذب الراغبين في السكينة.

لا تذكر المصادر المكتوبة إلا القليل عن حياة الولي. فما نعرفه هو أنه كان متمكنا من مختصر خليل وخطيبا بالجامع الأعظم، وأنه كان يقضي به أوقاتا كثيرة لكتب الحروز لزواره من أهل المدينة والقرى. ويبدو أن هذه الزيارات قد أخذت مشهدا مؤثرا. فقد حدث أن زاره أحد رجال العلم فرءاه جالسا مادا رجليه، والناس من أهل البادية يتساقطون عليه لتقبيل يديه وقدميه. فاستنكر الرجل هذا المشهد. فرد عليه سيدي عبد الله : " رجل قيل له من مس لحمك لم تمسه النار، أفيبخل بلحمه على المسلمين"(63).

وتظهر أسطورة أخرى حول سيدي عبد الله تفوقه على صلحاء المدينة. فعند قدومه إلى سلا، خرج كل أصحاب الطرق الدينية للقائه والتحق بهم عامة الناس، الصغار والكبار، العبيد والأحرار، النساء والرجال. ثم تجمع كل الأولياء، الأموات منهم

والأحياء، جنب هذا الحشد، وفي طليعتهم سيدي يدر الذي كـــان يعتبر آنذاك "سلطان صلحاء سلا". فلما جاء سيدي عبد الله ونــزل من فرسه، تقدم إليه سيدي يدر بقدح من الحليب. لكن، عوض أن يتسلمه منه أخرج وردة من قماشه ووضعها في القدح. فلما سـئل عن دلالة الوردة، أجاب بسؤال حول دلالة الحليب. فرد الصلحاء أن القدح يرمز إلى المدينة والحليب إلى صلحائها. فقـــال سـيدي عبد الله أن رمي الوردة في الحليب يعنـــي أن الله جعلـــه وردة بينهم. من ثم صار سيدي عبد الله سلطان الأوليـــاء. إثـــر ذلــك تحول الصلحاء إلى طيور، إكراما له. وكانت تلاحقه نخلة أينمـــا حل وارتحل، فلما دخل المدينة وذهب إلى المكـــان الـــذي بنـــي بمقربة منه ضريحه فيما بعد، انغرست الشـــجرة لوحدهـــا فـــي الأرض. عقب ذلك توالت زياراته من طرف أعيان المدينة، بـــل وحتى النساء، حيث كان يتحول لأمامهن في هيئة أنثى.

تعكس هذه الأسطورة بالتحديد وجهين هامين: أولا، أصبـــح سيدي عبد الله "سلطان لبلاد" في وقت متأخر نسبيا مـــن تـــاريخ المدينة، ثانيا، أصبحت مناقبه مندمجة، مع بعض التلاقح في نسق معتقدات الناس. لقد كرم الولي أهل المدينـــة وكرمـــت المدينـــة الولي. إنه تفسير يشير إلى صحة تحليل جاك بيرك، حول انتشـــار الصوفية كإحياء للقدرات والقيم المحلية تحت راية الإسلام، علـــى المجال الحضري في المغرب كمـــا علـــى الباديـــة. وإذا كـــانت البيوغرافية الأسطورية لسيدي عبد الله توافـــق نمـــط "انتشـــار الصوفية" خلال هذه الفترة فذلك يعود إلى الصورة التي ابتكرهـــا أهل سلا. فقد كانت الطريقة التي كرموا بها الولي من صنعـــهم الخاص : رجل فقيه متصوف يقبل بركة ربه بتواضع كبير، ولـــي لـــه القدرة ، عـــلى غرار سابقيه، ليقنع حتى الأولياء بأسلوبهم

وليخلق لنفسه منزلة رفيعة بينهم، ولي يقبله أعيان المدينة وفقهاؤها، بل وتزوره حتى نساؤهم لما رأوا فيه من حشمة وتواضع.

من مميزات المدينة أنها كانت تطلب من صلحائها كل شيء. فقد كان أهلها مركبا وكانت المطالب بالتالي متنوعة. لقد حظي سيدي عبد الله وأخلافه للذين لازال البعض منهم يكتب الحروز، بسند شعبي. وإلى اليوم يكرم الناس ضريحه الرائع بكثافة، ويخلدون ذاكرته في موسم جماعي يوافق عشية عيد المولد النبوي(64)

ونلمس أهمية سيدي عبد الله بن حسون ومدى تجذر شخصيته في الصورة المثالية للمعرفة والقيم الدينية من خلال النظم البيوغرافي الذي تركه لنا ابن علي:

ومنهم القطب الجليل الأكبر	سيدنا عبد الله الأشهر
وهو ابن حسون الجليل القدر	وبسلا ينتمي لفخر
أجل من يذكر في الصلاح	وأكبر الرجال في الفلاح
شيخ العلا وعين أعيان الملا	وعمدة الفضل بأرضنا سلا
وصفه النشر كثرة العجال	بالعالم الكبير والزهر المؤال
وبالولي الصالح المعتبر	أخ تقشفه وعلمه أكبر
أخذ عن أعاظم الأشياخ	في عصر الأكابر الرساخ
وكان قائما على متن خليل	حفظا وفهما وله حال جليل
يخبر بالغيب ويشفي المرضى	بكتبه فهو الولي الأرضى
وحاله أغربه مما يذكر	وسره أبهر مما ينشر
له تلاميذ أجلا فضلا	قد خرجوا من الشيوخ نبلا
وكلماته أعربته عن قدمه	إلى الرسوخ والجلال ينتمي

وكان يؤتى بالثياب الفاخرة   وبالهدايا والهبات الوافرة

فيطرحها في مكان مهملة   هناك تبقى للبلاء عاطلة

وهو الذي أنهض للجهاد   تلميذه الأرضى أبا الأباحي

محمد المجاهد العياشي   ففضله بين الأنام فاشي

فكان ذربا لبلاد المغربه   طول حياته لما به حبي

ولم يزل شيخ العلى معروفا   بفضله وجده موصوفا

أنافه عن تسعين ثم قضى   لعام ألف مع الثالث عشر مرتضى

وخيره للآن ترياق عرفه   أما الكرامة ففوق ما أصفه (65)

لا تشير هذه الأشعار بالقدر الكافي إلى انبعاث القوى الحيوية والقيم القروية التي عبر عنها صلحاء القرنين 15 و 16. ورغم أن مثل هذه القيم تظهر في بيوغرافية ابن حسون فإن تقاليد المدينة صاغت هذه الصور ضمن قالب إسلامي مألوف.

العياشي والدفاع عن التراب المغربي:

شهد الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط تحولا هاما في موازين القوى بين شماله وجنوبه خلال القرنين 15 و16. فقد جسد سقوط إمارة غرناطة الإسلامية سنة 1492 نهاية لأزيد من سبعة قرون من توسع المغاربة واستيطانهم في شبه الجزيرة الإيبيرية. ففي ظرف ربع قرن سقطت معظم المدن المهمة الواقعة على الساحل الأطلسي المغربي في يد الإمبراطوريتين الناشئتين : إسبانيا والبرتغال. في هذا السياق، شكلت سلا استثناءا(66).

من بين الوافدين على سلا خلال هذه الفترة، محمد العياشي، أحد الرموز الكبرى لتاريخ المغرب(67). ينتمي هذا

الرجل إلى قبيلة بني مالك، من العرب الهلالية المقيمة ببلاد الغرب. استقر بالمدينة عند أواخر القرن 16 وكرس حياته للدراسة والتصوف تحت إمرة شيخه عبد الله بن حسون، فامتاز بالورع وقلة الكلام ومداومة الصيام وتلاوة القرآن . وتذكر النصوص أن الشيخ أركبه ذات يوم فرسا كانت قد أهدته إياه إحدى القبائل الزائرة، وأمره بالتخلي عن التلمذة حتى يتعرف بإذن الله ، على العالم وعظمة خلقه. واستقسمه على الجهاد وباركه وأشار إليه بالخروج إلى ثغر أزمور.

ولم تمر بضع سنين على هذا الأمر حتى تولى العياشي حكم أزمور ودافع على هذه الجهة من المغرب بالتضييق الشديد على الإسبان والبرطقيز، وأصبح بالتالي خصما عنيدا للدولة السعدية. وفي سنة 1614 عاد إلى سلا بعد أن نجا من محاولة اغتيال دبرها له السلطان(68). من ثم وإلى غاية وفاته عام 1641 على يد إحدى القبائل العربية بالغرب، حارب العياشي الإيبيريين على طول السواحل الأطلسية والمتوسيطة وصار حاكما مستقلا للمنطقة الواقعة شمال سلا وشرقها(69).

الموريسكيون:

في الوقت الذي حول فيه العياشي مدينة سلا إلى ثغر للجهاد، نزح آخر المسلمين المهجرين من إسبانيا واستوطنوا الضفة الأخرى من نهر أبي رقراق، بالقصبة والرباط. والواقع أنه منذ 1492، توافدت على سلا جماعات منعزلة من المسلمين واليهود من إسبانيا. لكن لما طرد أهل الأندلس بكثافة بموجب سلسلة من المراسيم الصادرة عن فيليب الثالث من 1609 إلى 1614، لم يكن بإمكانهم الاستقرار بسلا على الدوام(70). ويقول

ابن علي أن البعض منهم كان قد اكترى بالفعل دورا بالمدينة لكنهم وبسبب سلوكاتهم المتحررة ولباسهم الرومي ولسانهم وتصرفاتهم ، كانوا قد أخلوا بقيم الإسلام ، وبالتالي لم تجز إقامتهم بالمدينة(71).

سنة 1610، أقام الهورناتشيون، القادمون من مدينة هورناتشوس الإسبانية، في الضفة الجنوبية للنهر، وشيدوا قصبة تدعى "قصبة سلا". لقد ظلت هذه الجماعة متجانسة وتميزت بتمسكها القوي بالإسلام ومحافظتها على اللغة العربية وثروتها التي نجحت في نقلها من إسبانيا، كما اشتهرت باللصوصية. وما أن استوطنوا هذا المكان حتى شجعوا مهاجرين آخرين للقدوم إلى المغرب والاستقرار بجانبهم في المجال المعروف بـ"مدينة الرباط". هكذا نمت ثلاثة تجمعات سكنية متباينة : سلا والقصبة والرباط، وإن كانت الوثائق الأوربية التي تقدم لنا معلومات كثيرة حول هذه الفترة غالبا ما تشير إليها مجتمعة، أو دون تمييز، تحت تسمية سلا.

حينما التجأ العياشي إلى سلا وافق زعماء المدن الثلاث على حمايته. وحصل بعد ذلك أن قطع "أندلسيو" الرباط علاقاتهم مع السلطة السعدية في مراكش وعينوا حاكما عليهم عن طريق الإقتراع، ليتحمل مسؤولية المجلس مدة محددة من الزمن. هكذا نشأت أول جمهورية على ضفتي أبي رقراق. وسار سكان القصبة على نفس النهج وكونوا جمهورية أخرى حوالي عام1627. لقد حافظت هاتان الجمهوريتان على علاقات طيبة مع العياشي المتحكم في المنطقة الممتدة من سلا إلى تطوان، واعترفتا بسلطته. لكنهما ظلتا في ذات الوقت متشبثتين

باستقلالهما الداخلي. ويبدو أنهما ساهمتا من الناحية العسكرية في جهاده ضد الغزاة النصارى بالسواحل.

لا نعلم كيف كان التنظيم الداخلي لسلا إبان هذه الفترة. لكن من الواضح أنها لم تكن تعترف بسيادة السلطان السعدي بمراكش، مولاي زيدان(72). فقد بايع أهل سلا والقبائل المجاورة العياشي للدفاع عن المراعي الواقعة في الشمال ضد الإسبان المحتلين للمهدية وللحد من الفوضى التي خلقتها القبائل داخل المدينة وبضواحيها. وهكذا قطع السلاويون ذكر إسم السلطان من خطبة الجمعة و"اجتمعوا على الولي الصالح العلامة المجاهد محمد العياشي السلاوي للجهاد في سبيل الله"(73).

وبعد غزوة ناجحة ضد نصارى المهدية اكتملت سلطة العياشي. فاستقر بسلا وبنى بها حصنين بالجهة الجنوبية الغربية المقابلة للقصبة، يتصلان بمنزله الكائن داخل الأسوار في الموقع الذي تشغله حاليا "مدرسة أبناء الأعيان" التي بناها الفرنسيون وذلك عبر نفق يتسلى به اليوم أطفال المدرسة.

الصراعات الداخلية ل "الجمهوريات الثلاث"

" من 1627 إلى 1641 عاشت سلا الجديدة(أي الرباط) والقصبة في حرب مستمرة تقريبا، سواء ضد بعضهما البعض أو ضد سلا القديمة وكان يتدخل الأشراف ولاسيما الولي الصالح العياشي في هذه الصراعات. لكن النزاع بين الهورناتشيين والمورسكيين شكل السبب الأساسي لهذه القلاقل التي لم تهدأ سوى مرتين أو ثلاث لسنين معدودة"(74).

ليس الهدف من هذا الفصل معالجة الصراعات الداخلية بين القادمين الجدد من شبه الجزيرة الإيبيرية ولا تطور الضفة

اليسرى لأبي رقراق، بل الإشارة إلى تأثيراتها على الحياة في مدينة سلا. غير أنه من المفيد إدراك أصل العداوة العميقة والمستديمة بين أهلي الرباط وسلا، وفهم بعض العناصر التاريخية الفاعلة في صورة السلاويين عن أنفسهم.

لم يكن باستطاعة الموركسيين الاستقرار بسلا كجماعة: فما حملوه معهم من الأندلس من عادات ولسان وفتور في شعائرهم الدينية وميلهم إلى التعامل مع التجار المسيحيين، كلها عوامل أثارت حنق سكان سلا والقبائل المتحالفة معهم. علاوة على ذلك، كان أهل الأندلس قد رفضوا مساندة العياشي في جهاده ضد الإسبان، بل واتهموا بخيانته هكذا شاور هذا الأخير العلماء في شأنهم فأفتوا بجواز مقاتلتهم تقول الفتوى:"لأنهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفار ونصحوهم ولأنهم تصرفوا في مال المسلمين ومنعوهم من الراتب وقطعوا البيع والشراء عن الناس وخصوا به أنفسهم"(75). وعليه، وجه العياشي نيران مدافعه نحو القصبة، في حين قام ابنه رفقة خمسة آلاف جندي بحصار الضفة اليسرى من موقع شالة. وقد استمر الهجوم والحصار مدة سنة ، 1631–1632 ، لكن دون نتيجة.

أربع سنوات بعد ذلك، قام أندلسيو الرباط عقب تغلبهم على الهورناتشيين واستيلائهم على القصبة، بوضع قنطرة من المراكب على النهر لنقل المدفعية والجنود قصد حصار سلا. لكن، تمكن العياشي من الدفاع عن المدينة. فقد حطم القنطرة ورفع الحصار. تم ذلك بمساعدة الأميرال الإنجليزي، راينسبورو الذي كان بالمرسى على متن أسطوله في مهمة افتداء الأسرى النصارى. تبع ذلك حصار آخر على الرباط. فبمساعدة الأميرال استطاع العياشي قطع المؤن عليها وإحراق حقولها. إثر ذلك

فرض السلاويون شروطهم على أهل الاندلس من أجل الهدنة: أولا، إصلاح الخسائر التي أصابت سلا، ثانيا، الحصول على نصف مداخيل الجمرك وغنائم القرصنة، ثالثا، عودة الهورناتشيين إلى القصبة. بعد ذلك بقليل غادر الإنجليز المرسى واستعاد السلطان السعدي سلطته على الرباط. لكن ما أن مرت بضعة أشهر حتى هاجم العياشي الأندلسيين من جديد. غير أن هؤلاء استنجدوا بالبربر الدلائيين المتحكمين في منطقة خنيفرة. فكانت الحرب بين الطرفين في إقليم الغرب، انهزمت على إثرها قوات العياشي. عندئذ التجأ هذا الأخير إلى قبيلة الخلط الحليفة لكنها غدرته وقتلته. كان ذلك سنة 1641. وبذلك وضع الديلائيون حدا لاستقلالية المدن - الدويلات الثلاث لأبي رقراق وتمكنوا من مراقبة المنطقة. فقد جسدت الهيمنة على المرسى بسبب الدور الذي لعبته كمستودع للتجارة الأوربية في السلاح الناري والبارود، شرطا أساسيا لبسط السيطرة على المغرب.

أثارت هذه العقود الثلاثة من الصراع، من أجل التحكم في هذا الجزء الحيوي من الساحل المغربي، تنافرا بين التركيبات البشرية لضفتي أبي رقراق، تمثل في المواجهة بين سلا والقبائل المجاورة من جهة، والمهاجرين الأندلسيين كخصم خطير ومفاجئ من جهة أخرى.

تحولت صراعات القرن 17 هاته، مع مرور الزمن، إلى ذاكرة تاريخية غيومة. فقد نعت السلاويون ، في البداية القادمين الجدد إلى الرباط بـ "النصارى القشتاليين"، ثم فيما بعد بـ" لمسلمين ذ الرباط"، وهي نعوت تشير بنوع من التهكم إلى فتور شعائرهم الدينية. وفي المقابل وبسخرية موازية يتحدث الرباطيون عن أهل سلا، بقولهم أن هؤلاء " كَيْخمَاقوا مع

العصر". وترد ذاكرة السلاويين بالقول، أنه في زمن العياشي لما كان الرباطيون يتعاملون مع النصارى خلال النهار، كان السلاويون ينهمكون في أشغالهم، وعقب صلاة العصر يحملون السلاح لمحاربة خونة الرباط . لكن صارت المدينتان،"ضمن تجاور بعضهما مع بعض"، على حد تعبير راينسبورو(76)، إخوة – اعداء. فقد سميتا بالعدوتين، وهي كلمة تذكر الناس بالأصل اللغوي المرتبط بالعداوة. لكن، تحولت هذه الكراهية المتبادلة بين أهلي الضفتين إلى مجرد مزاح . يعبر عن ذلك مثل سديد:"وخّا يوَلّي الوَلدْ حليبْ والرَّمْل زْبيبْ مايْكونشي الربــاطي للسلاوي حْبيبْ". بل حتى أهلي الرباط كانا "إخوة– أعداء". ورغم كل ذلك، كانوا مسلمين وذوي قابلية لاستيعاب الثقافة العربية للبلاد.

****

59) – P. Ricard, « la ville des deux rives », in Essai de Rabat – Salé et sa région, Rabat, 1931 , pp. 7-13 , R. Ricard, « La côte atlantique au début des XVI° siècle d'après des instructions nantiques portugaises », in Hesperis, 1937, p. 239 s.

60) ـــ مدن المغرب وقبائله ، ج1 ، ص18 وما تلاها.

61) ـــ الحسن الوزان، وصف إفريقيا ، نشر إيبولار، باريس، 1956 ، ج1 ، ص: 169.[النص العربي مأخوذ عن ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، طبعة 1980 ،ج 1 ، ص: 164 – 165].

62) – J. Berque, « Médinas , ville neuves et bidonvilles » , in les cahiers de Tunisie, n° 21-22, 1959 , pp. 8 s.

63) ـــ الإتحاف الوجيز، ص: 87 ، القادري، نشر المثاني ، نشر غرول، الأرشيفات المغربية ج 21، 1912 ، ص20 . راجع ضمن نفس السلسلة، 1906 ، ص170. وأيضا كوسيق ، بيوتات سلا، طبعة 1931 ، ص: 27 – 28.

64) ـــ حول هذا الاحتفال، أنظر براون ، ن.م.

65) ـــ ابن علي الدكالي ، إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا ، مخطوط خ.ع. الرباط ، د. 11 ص:43-43.

66) ـــ يقدم الناصري ملخصا مأساويا حول هذا الإنقلاب في موازين القوى ، من وجهة نظر إسلامية، الاستقصا ج2 ، ص 155 - 156. ـــ أنظر أيضا بخصوص سقوط المراكز الساحلية في يد الإيبريين، مدن المغرب وقبائله، ج1 ص: 131.

67) ـــ يقول لافي بروفانسال في كتابه "مؤرخو الشرفاء" (طبعة باريس ، 1922) ص: 347 : "ربما لا يوجد في الساعة الراهنة من بين رجال التاريخ للمغربي ، باستثناء الإمامين الإدريسيين (الأكبر والأزهر)، من هو أشهر وأكثر شعبية من المجاهد محمد العياشي"[عن تعريب ع. الخلادي].

68) ـــ الاستقصا ، ج3 ، ص108.

69) ـــ حول حياة العياشي والصراعات الداخلية التي أدت إلى نشوء القوة الدلائية، أنظر ، محمد حجي، الزاوية الدلائية، الرباط، 1964 ، ص: 143 وما تلاها.

70) ـــ يعالج بروديل هذه المسألة التاريخية بتفصيل في كتابه :

La Méditerrannée et le monde méditerranéen à l'epoque de Philippe II , Paris, 1949, pp. 576 s.

71) ـــ مدن المغرب وقبائله، ج1 ، ص 65 ، الإتحاف الوجيز، ص30. ـــ من جهة أخرى، يبدو أن فاس وتطوان قد احتضنتا المورسكيين دون صعوبة.

72) كانت سلا قد أرسلت وفدا إلى السلطان بهدف الحصول على دعم عسكري لمواجهة النصارى، لكن دون جدوى. أنظر "تاريخ الدولة السعدية" لمؤلف مجهول، نشر كولان، الرباط ، 1934، ص 103. راجع أيضا "الزاوية الدلائية" لمحمد حجي ، ص 170 وما تلاها، و"الرباط لجاك كايي، ص 209 وما تلاها.

73) ـــ الإتحاف الوجيز، ص: 11 - 12 . ـــ حول تحالف القبائل بقيادة العياشي وتزكية العلماء له من أجل "إعلاء كلمة الله ورد الظلم عن ضعاف الأمة"، أنظر الاستقصا ، ج3 ، ص: 129 - 131.

74) ـــ ج. كايي ، ن.م. ص : 216.

75) ـــ الاستقصا ، ج3 ، ص 130 - 131.

76) ـــ المصادر الدفينة لتاريخ المغرب، السلسلة الأولى، أرشيفات هولندة، ج 5 ، ص 309.

الفصل الخامس

قراصنة سلا

"مثلما في كل أرض لصوص ففـــي
كل بحر قراصنة "(77)
القبطان جون سميث
زعيم فرجينيا

" يتحدث التاريخ ورواياته كثيرا عن قراصنة سلا. لكن، على عكس ما قد نعتقده من أنهم أوباش استطاعوا تكوين قوة بحرية لها ما يكفي من المدافع لردع اللصوص، فهم ذوو بعثات ديبلوماسية ومراسلات ومصاريف"(78).

يعود تاريخ صناعة السفن والقرصنة في سلا إلى بداية القرن الثالث عشر. لكن تطور الأسطول القرصاني الذي أرعب أعالي البحار وسواحل أوربا لم يبدأ إلا عند مجيء الهورناتشيين والموريسكيين واستقرارهم بالضفة اليسرى لنهر أبي رقراق. لقد أكدت الدراسات الفرنسية حول القرصنة "أن مدينة الرباط الحالية وليس سلا، هي التي أوت المغامرين الشهيرين، الملقبين بالسلاويين أو قراصنة سلا الذين هم بالضبط، كما يجب أن ندعوهم اليوم، قراصنة الرباط"(79). ورغم أن تنامي القرصنة ارتبط من دون شك بالمهاجرين الجدد، فإن لوائح الرياس والملاحين تشير بوضوح إلى الدور الفعال الذي لعبه أهل سلا في " إعادة بناء ذلك التوازن الطبيعي بين المسلمين والنصارى الذي أفسده التاريخ "(80). لقد ساهمت القرصنة في أوائل القرن السابع عشر في تكوين ثروة مشتركة بين الجمهوريات الثلاث ولكن أيضا في الكثير من نزاعاتها الداخلية.

ففي الفترة الممتدة من 1618 إلى 1626، وحدها، – وربما كان في الأمر شيئا من المبالغة – أسر قراصنة أبي رقراق 6000 نصراني وحصلوا على غنيمة وصلت قيمتها إلى 15 مليون جنيه(81). فالأسطول القرصاني الذي أغار على سواحل إنجلترا وفرنسا وإسبانيا كان يتوفر على 30 إلى 40 سفينة. وكان لكل سفينة زهاء 20 مدفعا، يحركها حوالي مئتي ملاح(82). وتكمن بعض عوامل نجاح هؤلاء القراصنة في الطبيعة الخاصة للحاجز

الرملي لمدخل وادي أبي رقراق والذي لا تدخل مرساه سوى السفن الصغيرة نسبيا. وعليه، كان يستحيل على السفن الأوربية ذات الحمولة الهائلة مهاجمة القرصان إلا في أعالي البحار.

ألفت عشرات الكتب والمقالات حول قراصنة سلا، ركزت جلها على دور المرتدين في تنظيم القرصنة وقيادتها(83). لقد جذب أبو رقراق، بكل تأكيد، عناصر متنوعة من قراصنة مدن البحر الأبيض المتوسط. فبغض النظر عن الدين، نلمس في نفس الفترة، عدة تشابهات في البنية الاجتماعية والاقتصادية بين الجمهوريات الثلاث والجزائر وتونس وطرابلس من جهة وجينوة وبيزة وليفورنو وبرشلونة من جهة ثانية. وتستحق هذه الخصائص المشتركة للحضارة المتوسطية في القرن السابع عشر(84) ، بما في ذلك الدويلات البحرية لشمال إفريقيا أن تدرس من جميع الجوانب. ورغم ما يظهر من اختلافات "إيديولوجية"، يبقى من المفيد أن نرصد على ضوء ذلك، منطق القرصنة وأهميتها بالنسبة للسلاويين.

أوضح محمد حجي في فصل تحت عنوان "أسطول الجهاد أو القرصنة السلاوية" أن المعنى العربي لكلمة "قرصنة" لا ينسجم مع الدلالة التي تمنحها إياه اللغات الأجنبية. يقول:"أعني بالقراصنة السلاويين أولئك المجاهدين الأندلسيين والمغاربة الذين خاضوا بسفنهم عباب البحر للدفاع عن حوزة الوطن أو للثأر من الإسبانيين الذين ساموا المسلمين في الأندلس سوء العذاب وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق"(85).

ينظر أهل سلا، إذاً، إلى القتال والسلب في أعالي البحار أو في سواحل أوربا من باب مواصلة جهاد الدول الوسيطية والدفاع عن الثغور الساحلية على غرار ما قام به العياشي. لقد حظي

القراصنة "ذوو الشهامة والعقل السامي"(86) ببركة صلحاء المدينة وبالاندماج بين سكانها. لكن هذا لا ينفي مشاركة القراصنة المرتدين الذين كان غرضهم من القدوم إلى سلا هو اقتسام غنائم البحر. لا يزال أهل المدينة، إلى اليوم، وهم يتكلمون عن العائلات المرتدة القديمة، يقولون بنوع من السخرية: "شوف ف صندوق احصاصرة توجد طاقية النصارى، ولفنانشة لعلوج ف أصلهم ظاهرين من زروقيت عينيهم". ورغم أنهم كانوا إسلاميين، لم يكن أصلهم ليعيق انصهارهم في قواعد المجتمع وقيمه، ولا ليمنعهم من بلوغ مراتب الجاه. ثم إن وطأة الاندماج الاجتماعي والثقافي جعل من هؤلاء القراصنة المرتدين مجاهدين في سبيل الله.

التجارة و الرخاء في أفضل مرسى بالمغرب.

كانت سلا، ولوقت طويل، مرسى هاما للتجار الأوربيين والمغاربة. ففي القرنين17 و 18 ، شهد مصب أبي رقراق نشاطا تجاريا كبيرا. فقد كان الأفضل في المغرب بدون منازع. وكان من الطبيعي أن تتعايش القرصنة والملاحة. كان السلاويون يشترون من السفن الأوربية القادمة إلى الميناء المواد المصنعة وتحديدا الأسلحة والبارود، ويحصلون منها على أهم الغنائم. أما التهريب فكان، هو أيضا موضوع رواج تجاري عالمي في المدن المغربية، على غرار مدن ليفورنو وبيزة وجينوة لأن أهم أسواق هذه المواد وجدت في أوربا الغربية. علاوة على ذلك كانت تتطلب آليات افتداء الأسرى اتصالات دائمة بين الأمم الأوربية والمغرب. وغالبا ما كانت تتم المحادثات في الرباط وسلا بين الأخصائيين، أعضاء البعثات الدينية الأوربية من جهة وتجار العدوتين من جهة ثانية(87).

تمثلت أهم الوفود التجارية بحاضرتي أبي رقراق في هولندة وإنجلترة. وقع الطرفان معاهدات تجارية في سنوات 1610، 1615، 1657، 1658 و1659. وقد تميز الاتفاق الأخير باستقبال المستعرب الشهير جاكوب جوليوس لوفد سلاوي يرأسه إبراهيم معنينو، أحد أكبر وجهاء المدينة . اتفاق كان من نتائجه قبول الطرف المغربي إرسال مجموعة من المخطوطات.

في أواسط القرن 17، استمر الفرنسيون في الحفاظ على علاقات تجارية متينة مع مرسى العدوتين، بل وحصلوا على قنصلية عامة، الأولى من نوعها بزنقة القناصلة بالرباط. والواقع، يصعب علينا تقييم القيمة الإجمالية للتجارة الخارجية في ذلك الحين، إلا أن بعض المعلومات تشير إلى أهميتها البالغة. فمدينة مرسيليا، مثلا، كانت ترسل سنويا عدة سفن إلى سلا حمولة الواحدة منها تفوق 4000 كرونة. وتعود هذه السفن إلى فرنسا محملة بالجلود والصوف وريش النعام وقطع الذهب. لقد لعبت سلا باعتبارها محطة للقوافل الآتية من السودان دورا هاما في تفعيل الصادرات نحو أوربا. فإلى جانب الحبوب والجلود حملت القوافل المعادن النفيسة مثل النحاس والبرونز ومواد متنوعة كالصمغ والسندروس والفربيون وسلع أخرى، كمالية بالنسبة للأوربيين، مثل التمر والعاج والريش. ومن جهة أخرى روجت أسواق سلا بضائع أوربية كالورق والصباغة والأنسجة. وقد وصل حجم الاستيراد من فرنسا خلال سنة واحدة، في نهاية القرن 17، إلى نصف مليون فرنك فرنسي. كانت إذا الأرباح التي حققتها فرنسا بمدينة سلا هامة. ومن الجانب المغربي، كان المخزن يتمتع بحقوق جمركية على كل المنتجات الواردة والصادرة بنسبة تتراوح ما بين 10 و 25 % (88).

ويذكر أسير مسيحي، قضى سنوات عديدة في المغـــرب عند نهاية القرن 17 أن التجار الأكثر غنى كانوا يقطنـــون ســـلا وليس الرباط، وأنهم كانوا يتكونون من المسلمين واليهود علـــى السواء(89). فغالبا ما وصفت الطائفة اليهودية بالمغرب بأنها نـــافذة البلاد على أوربا . من هذا المنظور، وجب علينـــا التنبـــه إلـــى وضع هذه الطائفة ودورها داخل المدينة، خلال القرنين 17 و18.

الطائفة اليهودية بسلا.

عندما فتح مولاي إدريس الأول منطقة أبي رقراق، دخـــل أغلب السكان، النصارى واليهود والمجوس، في الديـــن الجديـــد الإسلام. لكن، تشير روايات عديدة إلى أن اليهود لـــم يعتنقـــوا كلهم الإسلام. إذ التجأ بعضهم إلى جنوب المغرب. وقـــد حـــافظ تراثهم الشفهي على ذكرى إقامتهم المبكرة بسلا وبقـــاء آخريـــن بالمنطقة، ربما كانوا من العناصر التي قدمت إلى المدينة للعيـــش بها عندما قام بنو العشرة بإعادة بناءها(90). ويـــرى ابـــن علـــي بخصوص أصل يهود سلا(91)، انهم كانوا يقيمون بها منذ ما قبـــل مجيء العرب. وقد تواصل تطورهم بعد الفتح الإســـلامي فـــي أحد أهم الأحياء وأفضلها، وهو الكائن قـــرب مدرســـة الطـــب المرينية، أي حومة باب احساين الحالية. وعقب سقوط غرناطـــة عام 1492، هاجر اليهود من إسبانيا إلى سلا، كمـــا إلـــى مـــدن أخرى، وجلبوا معهم جملة من مظاهر الرقي الأندلسي. ويذكـــر أيضا أن ما يقرب من 400 أرملة يهودية استقر بهن الحال بســـلا إلى جوار أبناء دينهن، إثر طردهن من البرتغـــال عنـــد نهايـــة القرن 16. لقد كن يمتهن الطرز "الصقلي" ويشتغلن مع بعضـــهن البعض ويعلمن فنهن لنساء المدينة، المسلمات منهن واليهوديات.

ويضيف ابن علي أن اليهود عاشوا في رخاء كبيربالمدينة، من القرن 13 إلى 18، بحكم احتكارهم للتجارة والمعاملات المصرفية وقيامهم بمهام مخزنية هامة مثل السفارة لدى أمم أوربا. فقد حظوا بثقة السلاطين. ولأبرزهم موشي بن عطار المنتمي لعائلة سلاوية معروفة بالعلم والتجارة. فقد شغل وظيفة المصرفي العام لدى السلطان مولاي إسماعيل، في بداية القرن 18، ووقع على معاهدة 1721 مع الإنجليز، باسم هذا الأخير. وكان في نفس الوقت نقيب الطائفة اليهودية بالمغرب. ولا يزال منزله، "دار بن عطار" ، الذي يشبه القصر، قائما إلى اليوم بسلا، وسط حومة باب احساين، حيث تحول إلى مدرسة للبنات. ويشير نفس المؤرخ، أيضا إلى إمكانية وجود مقبرة يهودية قديمة بالمدينة. فقد عثر في حدائق بطانة، بجهة الشرق على شاهدة تحمل تقييدا عبريا: "هنا يرقد جثمان عمران بن حيوت، لأمين المال بالمملكة الشريفة".

تؤكد النصوص التاريخية المتوفرة هذه الصورة العامة. فقد أوضحت الدراسات المتعلقة بمختلف الطوائف اليهودية بالمغرب أهمية سلا كمركز للعلم والثروة(92). لكن، يبدو أن يهود سلا وبخاصة وجهائهم، غلب عليهم التنقل بين حواضر شمال إفريقيا وأوربا. فقد أثرت لحظات التوتر السياسي على نحو سلبي في وضعهم. فغيلان، مثلا، الذي حكم منطقة الغرب خلال الستينات من القرن 17، كان قد أساء معاملتهم وأجبر بعضهم على مغادرة المدينة. وعلى العكس من ذلك كان مولاي الرشيد، الذي استرجع سلا عام 1667، "أكبر أصدقاء شعب بني إسرائيل"، حسب ما توره المصادر(93). لكن، كان لهذه الحركية وجه آخر. فعندما تتدهور الحالة الاقتصادية في مدينة ما، كان اليهود يهجرونها في

لتجاه مدينة أخرى. هكذا، مثلا، في نهاية القرن 17، حينما أصابت المجاعة مدينتي مكناس وفاس، حلوا بسلا، حيث كانت الأزمة أقل حدة. عموما تنطبق التحركات البشرية من سلا وإليها على المسلمين واليهود على حد سواء. لكن هؤلاء كانوا أكثر حركية. فقد كان النزوح من مكان إلى آخر عملية سهلة نسبيا بسبب وجود شبكة عريضة من العلاقات والتحالفات بين المجموعات اليهودية المنتشرة عبر البلدان والمدن.

ويرى جون لوي مييج أن حركية بني إسرائيل وشبكاتهم مكنتا اليهود المغاربة من أن يلعبوا دورا أساسيا في الوساطات بين المغرب وأوربا خلال القرن التاسع عشر(94) .غير أن لهذا الدور جذورا تاريخية. ويقدم النشاط الاقتصادي ليهود سلا ما بين القرن 16 و18 نماذج كثيرة على ذلك. لكن قد يكون في الأمر ضلالة كما هو واضح من هذا النص الفرنسي لسنة 1681 الذي يزعم بأن اليهود كانوا بسلا أوفر عددا من المسلمين وأن جل تجاراتها كانت بيدهم(95). ويبدو أن تجارة الأسلحة كانت قد أصبحت حكرا على اليهود المارانوس القادمين من شبه الجزيرة الإيبيرية في نهاية القرن السادس عشر. والملاحظ أن طائفة بني إسرائيل السلاوية كانت مقسمة إلى شطرين. الأول، يمثل القادمين الجدد من إسبانيا، والثاني، قدماء المدينة. وهو انقسام يوازي، لكن بحدة أقل، الإنشقاق بين الموريسكيين داخل المجموعة الإسلامية. لقد تميز اليهود المنحدرون من إيبيريا المعروفون تحت اسم المهجرين،"مكورشيم"، بسلوك خاص: لباس رومي وإحساس بالتفوق الثقافي. ومن ثم نظر إليهم يهود البلد البلديون،"توشفيم"، كجماعة متكبرة، شاذة وخطيرة لدعمها حركة ساباتي زيفي التبشيرية(96).

ومن جهة أخرى، احتضنت سلا يهودا ربانيين، من أبرزهم الحبر حاييم بن عطار، في أواخر القرن 17. وهو رجل علم، كتب شروحات حول التوراة ودرس الفلسفة اليهودية والمذهب الرباني في مدرسة كان قد أنشأها بالمدينة. وعلى غرار نظرائه من المسلمين، حظي حاييم بإجلال اليهود لورعه وكراماته. ومن الأساطير المروية بشأنه، انه كان يخفي قدراته الخارقة عن الناس حتى تظهر الأحداث ما يريده الله منه. وتمثل حياته نموذجا للحركية التي طبعت يهود سلا. فقبل ذيوع صيته كان قد تنقل كثيرا بين المدن والقرى. ثم استقر به المقام في مسقط رأسه سلا، لكنه عاش بها ظروفا قاسية، دفعته إلى الهجرة من جديد. فرحل إلى إيطاليا ومن ثم إلى القدس حيث أقام معبدا وتعدد أتباعه. ومات بها سنة 1743 (97).

أحمد حجي : المجاهد والولي:

استطاع مولاي الرشيد، حوالي عام 1670 ــ إرساء سلطة الشرفاء العلويين في كل أرجاء البلاد. لكن، رغم سيادة السلطان على المدينة، ظلت عند السلاويين نزعة حية نحو الانفصال، كما تؤكده أحداث القرن الثامن عشر.

تقلصت أهمية سلا بسبب تألق جارتها الرباط التي هي اليوم أكبر مساحة وأوفر سكانا. فإبان الجمهوريات الثلاث ارتبط دور سلا في القرصنة والتجارة بحيوية الرباط، وذلك على نحو وثيق. حقا أن كل مدينة كان لها حاكمها، لكن تحت إمرة السلطان. وقد كان الحكام الذين تعاقبوا على سلا في القرن 17 ينتمون في غالبيتهم إلى عائلات لا تزال موجودة إلى اليوم، مثل المعاننة والفنانشة. عائلات شغل أفرادها، أيضا، مهام السفارة لدى أمم أوروبا(98). أشهرهم القرصان عبد الله بن عائشة، الذي

مثل السلطان عام 1698 – 1699 لدى ملك فرنسا، والذي خلفت سفارته صدى طيبا في البلاط الفرنسي: "في المجالس الباريزية مجده الفرنسيون ونوهوا بكرمه وحذقه ولطفه. ففي البلاط كما في الشارع، رددوا كلماته الحلوة ونباهته، وهو ما تناقلته الصحف بمحاباة"(99).

لكن في الوقت الذي تبادل فيه المغرب وأوربا السفارات والتجارات، توالى الجهاد ضد القوى المسيحية بأعالي البحار والسواحل. فقد قامت فرنسا سنة 1680، للثأر من عمليات القرصنة، بحصار سلا وقصفها، مثلما فعلت سابقا، قبل 1629 ولاحقا، خلال القرنين المواليين، لكن بخسائر أكبر. وفي إنجلترة ترسخت صورة سلا في المتخيل الإنجليزي عبر كتاب دانيل ديفو، « Robinson Cruseo »، وغروب ستريت الذي انشغل طوال القرن الثامن عشر بـ "القراصنة" و "الاسترقاق". وقد أنشد أحد الشعراء الإنجليز سنة 1699 أبياتا بشأن حملة على القراصنة الأتراك، في سواحل شمال إفريقيا. وهو أسلوب آخر للإشارة إلى قراصنة سلا(100).

وقد مارست الدول الأوربية أيضا القرصنة. ففي رسالة موجهة إلى هولندة سنة 1640، اشتكى السلاويون من اعتداء بحارة هولنديين على اثنتين من سفنهم. وتحتوي الرسالة على لائحة بأسماء الأشخاص الذين كانت لهم بضائع بهما، من بينهم أحمد حجي، آخر أكبر صلحاء سلا، الذي ساهمت شخصيته في شهرة المدينة. وقد كان المسجد الذي يحمل اسمه والقائم قرب ضريحه، ولزمن طويل، ثاني أكبر جامع للخطبة بعد المسجد الأعظم. ويقع المسجد بمحاذاة السوق الكبير، وسط الأحياء الشعبية والتجارية. وقد اعتاد حفدة الولي أن يعتبروا انفسهم

شرفاء في حين يعتقد الناس أنهم فقط "أولاد السيد". وعائلة أحمد حجي وافرة العدد. وقد لعب أفرادها، خصوصا منذ نهاية القرن التاسع عشر، أدوارا طلائعية في حياة المدينة.

جمع أحمد حجي بين مزايا التصوف والجهاد. تحكي الروايات التاريخية أنه قاد سنة 1681 هجوما ضد الإسبان بالمهدية. يقول ابن علي : "وحضر هذا الفتح جملة من أعيان أهل الله كان فيهم الشيخ سيدي أحمد حجي في جملة من حضر. ومن ثم اتصلت معرفته بأمير المؤمنين مولانا إسماعيل رضي الله عنهما كما اتصلت معرفة ذرية سيدي أحمد حجي بذرية مولانا إسماعيل من بعده"(101). وساهم أحمد حجي في المفاوضات اللاحقة مع الإسبان. وهي أدوار جعلت السلطان يمنحه "ظهير التوقير والاحترام". أما الإسبان فأهدوه تذكارا رمزيا، وهو سيف اعتز به أخلافه جيلا بعد جيل.

تشبع أحمد حجي بالتعاليم الصوفية للشيخ الجزولي(102) وأسس طريقة دينية بالمدينة، منحها اتباعه طقوسا روحانية أقرب إلى الجذب من السلوك، على غرار الطرق السلاوية الأخرى. وتشيد الروايات ببساطة عيشه واعتكافه على الصلاة كما تتحدث عن اشتغاله بإحدى الحرف المتواضعة، الدرازة، حيث كان يقضي اليوم كله منكبا على منواله، مرددا ذكر الله دون انقطاع. أما أتباعه فقد كانوا يتكونون من الصناع في سلا وخارجها.

وقد كانت جنازته يوما مشهودا. فدفن في الزاوية التي أسسها وحبسها على ذريته، حيث بنيت عليه قبة عجيبة. وقد ورث بركته، ابنه عبد الله الجزار الذي أصبح "مقدم" الطريقة. أما حفيده، الفقيه فارس أبو مدين، فهو الذي أشرف على بناء مسجد الخطبة الكائن قرب الضريح، في بداية القرن 18، والذي

عرف لول الأمر بجامع مولاي إسماعيل. فكان إماما له وخطيبا بأمر من السلطان. ويذكر أن هذا الأخير كان قد أعلن المسجد والزاوية وما يحيط بهما "حرما"، لاتقربه سلطات المخزن ولو لجأ إليه المضطهدون. وقد استفادت هاتين المؤسستين من مداخيل الأوقاف، الخاصة والمخزنية، وتمكنت الزاوية من امتلاك خزانة كبيرة. وتعتبر عائلة حجي السلالة الوحيدة في المدينة التي يذكرنا تأثيرها ونفوذها بالسلالات الصوفية التي لعبت دورا اجتماعيا في البادية. لكن ، تعكس مزايا هذه العائلة أولا وقبل كل شيء قيم الصلاح والعلم في الحاضرة(103).

يذكر ابن علي في بيوغرافياته، فضلا عن أحمد حجي ترجمة لأربعة عشر رجلا من أهل التقوى والمعرفة، عاشوا ما بين 1660 و1780 . بعضهم من عائلات عريقة، والبعض الآخر شرفاء، لكن ، يعرفون كلهم بـ "أولياء الله". وقد شغل اثنان منهم، على الأقل، وظائف هامة. واللافت للنظر في قراءة هذه التراجم، هو التشابه الظاهر لنماذج حياتهم الروحية والثقافية وإستمراريتها، كما لو تعلق الأمر بسلالة واحدة. وتقدم سيرة أحمد بن عاشر الحافي المتوفى عام 1747 مثالا صريحا على ذلك. لقد كان، في نظر ابن علي، علامة عصره ومفخرة مدينته. فقد قرأ على مشايخ عظام، ودون سيرهم وتعاليمهم، وألف في مناقب الشيخ ابن عاشر ووضع فهرسة لمشايخه، بل وأيضا لتلاميذته، أمثال القاضي محمد بن الحاج زنيبر المتوفى عام 1780 وابنه الحاج محمد، قاضي سلا وخطيب جامعها الأعظم. هكذا توارث لأبناء المدينة نماذج مثالية من العلم والصلاح على مدى الأجيال. وهكذا أيضا، خلد المؤرخون التقليديون عزة هذه الحاضرة بتوظيف تراجم علمائها وأوليائها(104).

77) ــ عن ب. ميكن ، ن.م. ، ص: 256.

78) – R. Brown in the introduction to the Adventures of Thomas Pellow of Perryn, Mariner. of Three and Twenty years in Captivity among the Moors, London, 1890, orig, éd.1740.

79) – R. Coindreau, les Corsaires de Salé, Paris 1948, p. 40.

80) ــ الكلام لفيرناند بروديل، وهو مقتبس عن :

J. Monlau, Les états barbaresques, Paris, 1964, p. 39.

ويشير إلى أن القرصنة كانت ظاهرة أوربية وشمال إفريقية على السواء.

81) ــ المصادر الدفينة ... أرشيفات هولندة، ج5 ، ص11.

82) ــ ج. كايي ، ن.م. ص 225 ، الإتحاف الوجيز ، ص 20.

83) ــ أنظر ، ل. برونو، ن.م. ، حيث يخلص إلى القول أن " الحضارة الملاحية للرباط وسلا كانت صدفة أفرزها الخارج".

84) ــ ف. بروديل، ن.م. ص 693 وما تلاها.

85) ــ م. حجي ، ن.م. ص : 174.

86) ــ إتحاف أشرف الملا ، ص 20.

87) ــ المصادر الدفينة...أرشيفات هولندة ، ج 5 ، ص 15 وما تلاها...راجع أيضا :

H. De Castries, » le Maroc d'autrefois, les Corsaires de Salé in Revue des Deux Monde 1903, p. 828.

88) ــ مدن المغرب وقبائله، ج1 ، ص 120 وما تلاها .

89) – Travels of, the Sieur Monette in fez and Morocco during his Eleven years Captivity in those Parts, London, 1710, p.5.

90) ــ الأرشيفات المغربية ، ج6 ، 1906 ، ص39 ، 42 ، 56 ، 68 ، 128 ، مدن المغرب وقبائلـــه، ج 1 ص210.

91) ــ يقال أن ابن علي قد ألف كتابا حول تاريخ اليهود بالمغرب، لكنني لم أعثر عليه. فقد كان يلتقي بصفة منتظمة مع كبير أحبار المدينة، رفائيل إنكاوا المتوفى عام 1935، والذي كان يزوده بـــأهم المعلومـــات. أمـــا المعطيات الواردة في المتن فهي مأخوذة عن :

Archives of Alliance israelité in Paris, n° VI, B 27 (Mme K. Nahum, « une page d histoire », Salé, 12/15/17).

92) – Cf. Y.M. Toledano, Sefer ner ha – ma 'arav : hu toldot yisra 'el b-Maroqo, Jerusalem, 1904, pp. 50,69,74,90,117,129,133,152, Rabbi Y. Sasportas, Safér tsaytzat novel tzvi, Jérusalem, 1954.

ولد ساسبورتاس، المنحدر من ابن ميمون، في وهران وعاش في سلا مدة طويلة من الزمن، خلال القرن 17.
ورحل بعد ذلك إلى أوربا، لكن أثناء إقامته بسلا كانت له علاقات وزيارات مع بلدان بعيدة كالقدس وليفورنو وهامبورغ وأمستردام. وكان قد عينه السلطان سفيرا بإسبانيا. وقد بين سوارز وتاشي في مدخلهما النقدي لكتابه الطريقة الإيجابية التي تعامل بها أهل سلا مع بعثة سباتي زيفي. راجع أيضا :
H.Z. Hischberg, Toldot kayhudim b-afriqua ha-tzfonit, 2 vol. Jérusalem, 1965, I.D. Abbou, Musulmans Andalous et Judéo-Espagnols, Casablanca, 1953.

93) ـــ طوليدانو ، ن.م. ، ص116.

94) ـــ ج.ل. ميج، ن.م. ج2 ، ص 88 وما تلاها.

95) ـــ المصادر الدفينة...أرشيفات فرنسا، السلسلة الثانية، ج1 ، ص 582:"اليهود بسلا أوفر عددا من المسلمين والتجارة من دولهم لا تساوي شيئا..." ، أنظر أيضا ن.م. ج5 ، ص 526 ، حيث تتحدث رسالة كتبت عام 1699 عن 400 إلى 500 من التجار ليهود يقطنون بالمدينة، لكنهم مرهقون بالضرائب ومعرضون للمصادرة المخزنية.

96) ـــ حول سباتي زيفي (1626 ـــ 1676) وانتشار حركته في العالم اليهودي، أنظر :
M. Margolis and A. Marx, History of the Jewish people, New-york, 1960, pp.558 ff.

97) ـــ طوليدانو ، ن.م. ص 155 ، وأيضا :
DNoy, in Shiv'im sipurim v. sipur mi-pi yhudai Maroqi , Jérusalem , 1964 , pp. 72 ff , 141.
الذي جمع حكايات عن يهودي مغربي مزداد بإفران ، في جبال الأطلس ن حوالي عام 1890. وكان قد ولد جد هذا الرجل بفلسطين، وهو من عائلة مغربية تدعى بوطبول. وقد قدم الجد إلى سلا في الثلاثينيات من القرن 19 كمبعوث لجمعية فلسطينية "Eznat Dalim"، لكنه لما علم بنبأ وفاة زوجته في زلزال 1837 قرر البقاء في المغرب والاستقرار بإفران. هكذا تظهر لنا بجلاء حركية اليهود المغاربة منذ القرن 19.

98) – D.O. Dapper, Description de L'Afrique , trans. From flemish, Amsterdam , 1686, pp. 141 ff.
كان بالرباط وسلا، حسب ما كتبه القنصل الفرنسي بالرباط سنة 1697 ، ثلاثة حكام، فضلا عن أمين التجار الملقب بقائد المرسى (المصادر الدفينة... السلسلة الثانية، ج4 ، ص 546).

99) – J. Caillé, « Ambassades et missions marocaines en France », in Hesperis, 1960, p. 51.

100) ـــ هدأنا الأتراك بمعاهدة وأسكتونا حتى حققوا مبتغاهم، أما صداقتنا فلا تهمهم" أنظر :
John Balthorpe, the Streights voyage, in Hesperis, 1929.

101) ــ الإتحاف الوجيز ، ص 48.

102) ــ أنظر "الجزولي" في موسوعة الإسلام. - وحول الصوفية والطرق الدينية بالمغرب

G. Drague, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, Paris, 1951 .
A. Bel, la Religion musulmane en Berberie : Esquisse d'histoire et de
B. sociologie religieuses , Paris , 1938.

103) ــ يمنحنا ابن علي أهم الأخبار حول حياة سيدي أحمد حجي وسلالته بحكم ارتباطه بعائلة الولي، ذلك أن والد أمه، الفقيه سيدي الحارثي حجي، المتوفى عام 1855، كان فقيها محترما، من الجيل السادس للولي: الإتحاف الوجيز، ص 48، 93 — 94، وأيضا كوسي، ن.م.، ص 30 ما تلاها.

104) ــ الإتحاف الوجيز، ص 90 —116 . ــ غير أن كسب المعرفة لم ينحصر على طائفة معينة دون أخرى. فبالرغم مما اشتهرت به العائلات العريقة في ميدان العلم ، تاريخيا، فإن الأمر يتعلق بسلالات روحية وثقافية ليس إلا.

الفصل السادس

أهل سلا في القرن الثامن عشر

تمكننا المصادر المتوفرة حول القرن 18، الذي يدخل ضمن المرحلة ما قبل الإستعمارية، من تكوين صورة أكثر وضوحا عن أهل سلا وأسلوبهم في الحياة. في عهد مولاي إسماعيل، 1672-1727 ، كان الوضع السياسي مستقرا نسبيا بفضل فاعلية جيش"البخارى" المكون من عبيد السودان. ومعلوم أنهم أقاموا، في معظمهم بمشرع الرملة، قرب وادي سبو، بين العاصمة الجديدة، مكناس، وسلا، حيث وصل عددهم إلى 70.000 رجل. في حين، رابط آخرون بمختلف القصبات التي شيدت خصيصا لهم خارج المدن وعلى طول الطرق الرئيسية(105)، منها قصبة "كناوة"(106)، على مسافة بضعة أميال شمال سلا، بمحاذاة ضريح سيدي موسى. وقد علل وجود العساكر هناك بعوامل عدة: حماية مرسى أبي رقراق من هجمات السفن المسيحية مراقبة الطريق المؤدية إلى المهدية وحفظها من غارات القبائل المجاورة، وأخيرا وهو عامل في غاية الأهمية، صيانة المدينة من أي محاولة للتمرد ضد المخزن(107). وهكذا تحكم مولاي إسماعيل في سلا وظلت سلطة جيشه مطلقة "حتى لا ينقض عليه أهل سلا عهدهم"، كما يقول ابن علي.

غير أن مجموعة من الإشارات تدل على نوع من التوتر بين أهل سلا والعساكر. فغالبا ما اشتكى وجهاء المدينة من عيثهم لدرجة أن بعضهم اضطر لمغادرة المدينة خوفا من غضب مولاي إسماعيل. لكن، كان لهذا الأخير حلفاء أقوياء في سلا كما تؤكد ذلك رسالة وجهها السلطان سنة 1721 إلى الطاهر معنينو الذي كان ربما حاكما للمدينة وقتئذ، يدعوه فيها والسلاويين أجمعين، إلى احتضان الإماء لتربيتهن وتعليمهن القراءة والأخلاق الحسنة والخياطة والطبخ، الخ. وتشير الرسالة

إلى أن هذه الدعوة هي ثقة وضعها السلطان في سكان المدينة وتحذرهم في نفس الوقت، من مخاطر هذه المهمة كأن تغادر الإماء المنازل في غير مناسبة، تحت طائلة قطع الرأس. وتضيف الرسالة أن المدينة والسلطان كانت تجمعهما علاقة مميزة وأن أهلها كانوا يمتثلون لسلطته وأوامره(108).

التضامن الحضري:

يقول ابن علي: "فلما توفي مولاي إسماعيل توالت بالمغرب اضطرابات ضاق بها المتسع وساءت مساءات تلك المنكرات، فعظم في الناس هول ذلك المضطلع: شح مطاع وإعجاب كل ذي رأي برأيه وهوى متبع"(109). في هذه الظروف بالغت عساكر قصبة كناوة في تصرفاتها الدنيئة وإهانتها للمدينة. فانتفض الناس في الأخير وواجهوهم.

لقد فسرت هذه المواجهة بقصة حفظ شرف النساء من تحرشات العساكر المخزنية. وتبدو هذه الرواية منتحلة لكن قيمتها السوسيولوجية لا تقبل الجدل. يحكى أن أحد زعماء سلا عبد الحق بن عبد العزيز فنيش كان ذات يوم في جنان له خارج المدينة، يسقي كروم العنب، فوجد جنديا من عبيد المخزن قابضا على امرأة من نساء سلا من ذوي الصون والمروءة، يريد إخراجها إلى القصبة فنادته: "يا عبد الحق، هكذا ترون نساءكم يساقون إلى الهوان وفعل الفواحش. لو كنا رجالا وأنتم نساءا لما بلغتم هذا الذل الذي بلغنا! " فنهاه عبد الحق وطلب منه إخلاء سبيلها. فسبه العسكري وهدده ، فقتله عبد الحق ورجعت المرأة سالمة إلى محلها.

وكان القائد بسلا، في ذلك الوقت، من عائلة الحافي. فلما رجع عبد الحق إلى المدينة، خائفا من سطوته، جمع حوله رجالا

مـــن ذوي النجدة والبأس، وذهـــبوا إلى الـــقائد وطلبوا منـــه أن يلزم مكانه، وجمعوا العـــدة والسلاح وخرجوا للقصبة. فلما علـــم العبيد بالأمـــر فـــروا تاركينها خالية. فعمد عبد الحق ورجالـــــه إلى إحراقها وتخريبها عن آخرها. هكذا تولى عبد الحـــق لمـــر المدينة وقيادتها(110).

يمكن اعتبار تولي عبد الحق الســـلطة بالمدينـــة تجســـيدا لتضامن جزئي أو كلي بين السلاويين. ويظهر الحـــدث أيضـــا وجود زعماء عظام باستطاعتهم الأخذ بزمام الأمور في الأوقـــات الحرجة. فالدعم الذي يمنحه الناس لممثـــل الســـلطة المركزيـــة يرتبط، على نحو وثيق، بمدى قدرة هذا الأخيرعلى صيانة قيمـــهم الأخلاقية. بمعنى، أن الإخلال بهذا الأمر من شأنه أن يدفع بـــهم إلى السهر على شؤونهم بأنفسهم. من هذه الزاوية، يظهر حفـــظ شرف النساء أكثر أهمية من الرضوخ لممثـــل الســـلطة. وفـــي الحدث إشارة أيضا إلى ما يفرزه اختلال الأمن بالمدينة، بصـــورة تلقائية، من فاعلية لدى السكان لحماية مصالحهم.

السلطة المحلية والسلطة المركزية:

يعكس هذا الحدث التاريخي مظـــاهر اجتماعيـــة أخـــرى بالمدينة. فقد دشنت وفاة مولاي إسماعيل عهدا مـــن الفوضـــى السياسية في كل أنحاء المغرب : ضعفت سلطة المخزن وتخلص الجيش من الرقابة واستبد الحكام المحليـــون بأقاليمـــهم. فكـــانت النتيجة أن انفلتت النواحي من قبضة المركز. في داخل المدنـــــ كما هو الشأن بالنسبة لسلا، طفت التحالفـــات الداخليـــة علـــى السطح ومكنت الجماعة القوية من الأخذ بزمام السلطة. وعمومـــا شكلت القوى المناهضة للمخزن تهديدا كبيرا على أمـــن المـــدن المغربية، بإضعافها للتوازن بـــين السكان وممثل السلطان. وأما

عن حالة سلا فقد ساهم موقعها الجغرافي في التخفيف من حـــدة العصيان إزاء قوة الحكم المركزي. لكن ضرورة التصرف فـــي الوقت المناسب كانت من وراء تمرد مفاجئ ونزعـــة اســتقلالية داخل المدينة.

بالفعل، لقد أعلن عبد الحق استقلاله عن السلطان مـــولاي عبد الله ، وحكم المدينة وأحوازها مع عشيرته وعصبيته. عندمـــا تمرد المستضيء ضد أخيه سنة 1738، استقبله عبد الحق بســـلا وأعلنه سلطانا، مما أدى إلى انشقاق كبير بين أهل المدينة. فقـــد فر، مثلا، العلامة أحمد بن عاشر الحافي إلى الرباط حيث ظـــل الناس أوفياء لعهد مولاي عبد الله. ومعلوم أن المستضيء كان قد حاصر الرباط مدة سنة على رأس فيالق مكونة من قبيلـــة بنـــي حسن، لكن دون جدوى. ومع ذلك، رفض عبد الحـــق الإذعـــان لمولاي عبد الله(111).

استراحت سلا من عيث عساكر مولاي إسماعيل وخـــرب مركزهم، مشرع الرملة. وأصبحت القـــوة العســكرية الجديـــدة بالمنطقة تتكون من قبائل بني حسن ودكالة التي كـــانت ترتبـــط بعلاقات طيبة مع المدينة وتدفع بالعديد من أفرادها للهجرة إليـــها. فقد خرب بنو حسن مشرع الرملة وحملوا كل أخشابها وأبوابـــها وباعوها هناك. إثر ذلك، التحق عدد كبير من اليهود بسلا قصـــد الاستقرار بها، لكنهم حافظوا على زياراتهم لـــها حتـــى نهايـــة العشرينيات من هذا القرن(112).

استمر استقلال سلا تحت قيادة عبد الحق إلى غايـــة 1766 السنة التي قتل فيها على يد السلطان الجديد، سيدي محمد بن عبد الله. كان السلطان، في بداية حكمه، قد ترك عبد الحـــق وشـــأنه رغم أن هذا الأخير كان قد أغلق عليه أبواب المدينة حينما حط

بالرباط في عهد أبيه، ورفض أن يبعث إليه بالهدايا، على النحو الذي كان متعارفا عليه آنذاك. لقد تخلص منه السلطان، في نهاية الأمر، عن طريق الزنابرة الذين كانوا قد فقدوا أحد أفرادهم قتلا على يد عبد الحق. فكانت شكايتهم إلى السلطان مناسبة للامتثال أمام حضرته. فاستنكر صنيعته وأمرهم بالثأر لأنفسهم لكنهم جبنوا عنه لما كان له في قلوبهم من الهيبة. فأمر الوزعة بقتله بمرأى منهم. ثم حجز لأملاك الفنانشة جميعهم، والتي كانت تتيف عن المائة، ما بين أراضي وعقارات، متهما إياهم بـ "أعمال الموجبات". وباع أملاكهم لبني حسن وغرب جلهم. غير أنه عفا عنهم فيما بعد ، فعادوا إلى سلا واسترجعوا ثروتهم(113).

وهكذا ، بعد إحدى عشر سنة فقط، نصب السلطان ابن عبد الحق ، الطاهر فنيش، قبطانا، وكلفه بمهام ديبلوماسية، في طليعتها زيارة بلاط ملك فرنسا، لويس 16 سنة 1777 والتوقيع على المعاهدة الشهيرة التي اعترف السلطان بموجبها باستقلال الولايات المتحدة الأميركية. كما ولى فنانشة آخرين رياسة المدفعية، فبرعوا في تجهيز الثغور الساحلية. لقد عرفوا بفضل قريحتهم الفائقة، كيف يفكوا العزلة عنهم في وقت قصير.(114).

أفول التجارة :

يرى بعض المؤرخين أن تدهور اقتصاد المدينة خلال القرن 19 كان نتيجة لما حصل بين سيدي محمد بن عبد الله وعبد الحق فنيش. فالسلطان ، بحسب هذا الرأي، عاقب سلا على استقلاليتها بإنشاء مرسى الصويرة وتنميته(115). لكن، هناك عوامل أخرى ، طبيعية، تفسر هذا الوضع. أولها، زلزال لشبونة الذي تسبب سنة 1755 في خسائر في الأرواح والممتلكات إثر الانغمار البحري الذي لحق جهة البر(116).

النتيجة : علو الرمل بمدخل المرسى، وبالتالي إعاقة حركة السفن ذات الحمولة الهائلة. وعليه، فقد تقلصت القرصنة ومداخيلها رغم استمرارية عملياتها لبعض الوقت. وضعفت أيضا رواجات التجارة الملاحية. في عام 1767، في آخر محاولة لإنقاذ المرسى استقبلت سلا أحد الخبراء الأتراك في شؤون المراسي بهدف إحياء آثار دار الصناعة. لكن ، تبين أن إصلاحها صعب للغاية حيث من شأنه أن يكلف مالا باهضا واثنى عشر سنة من الجهد. هكذا، وبالإضافة إلى رغبة السلطان في تشييد مرسى جديد، يقرب من عاصمته، مراكش، ويسهل التحكم فيه، أفل نجم سلا كمدينة للتجارة الملاحية(117).

والجدير بالذكر، أن سفن القرصنة استمرت في استعمال المرسى حتى مطلع القرنالتاسع عشر . بالفعل، قام الفرنسيون سنة 1765 بقصف سلا ردا على عمليات قراصين العرائش. فقد أطلقوا على المدينة أكثر من 400 قذيفة على مدى ثلاثة أيام. ومع ذلك يؤكد المؤرخون السلاويون أن "حرب سلا" كانت انتصارا لمدينتهم. لقد رأى الناس في الفوز إرادة ربانية، ذلك أن ريحا عظيمة أجبرت سفنهم على مغادرة الساحل. أما في العرائش، فقد ردعتهم مدفعية المخزن، حيث قتل ثمانون فرنسيا، أرسل السلطان رؤوسهم إلى سلا، فعلقت بالصقالة القريبة من ضريح الشيخ ابن عاشر. وربما كان في الأمر إشارة إلى أهل سلا كون السلطان لا زال قادرا على حماية ساحلهم(118).

بقي السلاويون على رأس السفن. فقد عين السلطان بمقتضى ظهير 1763 المجاهد الحاج الهاشمي، ابن الرايس أحمد عواد، قبطانا على أسطول العدوتين(119). وفي سنة 1768–1767 يظهر العواودة مرة أخرى كرياس للقراصين، بثلاثة أفراد،

وسلاويون آخرون من عائلات الطرابلسي والصابونجي والتركي(120). وقد شغلوا مهامهم تحت أمر السلطان ونفقته، كما يشير إلى ذلك ظهير 1774. ويظهر نص آخر من نفس النوع مواصلة السفن للنشاط التجاري من خلال ما يذكره سنة 1786 بخصوص تعليمات الرايس عبد السلام بن محمد ابن الفقيه الشريف العلمي السلاوي، حول منعه شحن الخمر أو الخنزير في البحر الأبيض المتوسط أو الأطلسي وحثه البحارة على احترام مواقيت الصلاة والالتزام بالاتفاقيات المبرمة مع النصارى(121). ومع ذلك، ظلت سفن العدوتين تهدد الملاحة الأوربية في عهد مولاي سليمان، ما بين 1792 و1822، وتعود بغنائم كبيرة. وكانت تقام الاحتفالات عند العودة إلى المرسى(122). في هذا السياق يصف المؤرخ الرباطي مشهد دخول سفينة للقراصنة، سنة1807 إلى ميناء سلا تحت رياسة عواد، والناس يهللون بعودتهم(123).

في القرن التاسع عشر، كان بسلا والرباط، من الطبجية والبحرية 1121 شخصا، ورثوا التقليد الملاحي. ويظن ابن علي أن هذا التقليد هو الذي مكن للسلاويين من هزم الأسطول الفرنسي في وقعة 1851، حيث ردوا على القصف "بما [اقتدروا] عليه حسب القوة والاستعداد و[صبروا] صبرا جميلا..."(124).

لكن – مع ذلك، شهدت القرصنة والتجارة الملاحية بسلا ركودا جليا. ويعود ذلك إلى عوامل خارجية. ففي سنة 1817 اتفق مولاي سليمان مع القوى الأوربية على تجريد السفن من السلاح ووضع حد رسمي للقرصنة. وتفيد مصادر بريطانية، أن السلطان كان مقتنعا بهذا الإجراء، خصوصا لما علم بما حل بطرابلس وتونس والجزائر، وأيضا بفعل تنامي قوة الإنجليز بجبل طارق(125). علاوة على ذلك، هدفت سياسة السلطان إلى

حماية وحدة البلاد عبر التقليص من اتصالات المغاربة بالأجانب. وعليه، منعت التجارة الخارجية، ما عدا في طنجة والصويرة، حيث احتكر المخزن كل الرواجات عن طريق وساطة التجار اليهود(126). هكذا توقفت البحرية المغربية. لقد جسد ذلك، كما يرى جون لوي مييج، "عودة للنزعة الداخلية". فباستثناء بعض المحاولات اليائسة لإحياء القرصنة كان المغرب قد انطوى على نفسه كليا. يقول: "في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تتهيء للتدخل في الجزائر محطمة قطعا التوازن السياسي بالحوض المتوسط الغربي، كان المغرب قد انغلق على نفسه أكثر من أي وقت مضى، على هامش قارة في بداية ثورتها الصناعية. فكل سنة مرت إلا وزانت من عزلته"(127).

والواقع أن التجارة بسلا كانت قد تداعت إلى الإختلال منذ نهاية القرن 18. في سنة 1733، كان حضور الإنجليز قويا جدا حيث توفروا على ما يناهز مائة غرفة تجارية بالرباط وسلا وكانت عمليات الاستيراد والتصدير نشيطة جدا مع انجلترة وهولندة على السواء. أما في نهاية القرن فقد تغير الوضع تماما. ففي عام 1781 انتقل التجار الأوربيون، بأمر من السلطان، من سلا إلى الصويرة، بل حتى قنصل فرنسا، وهو آخر أوربي مقيم بالرباط، رحل إلى طنجة، حوالي1797 (128).

وضعفت التجارة البرية أيضا. وعلى الرغم من صعوبة تحديد تبعات هذا الضعف، يبقى احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830، بكل تأكيد، عاملا أساسيا في هذا الشأن. ففي نهاية القرن 18 كانت تنطلق قوافل مكونة من مائة جمل من سلا سنويا في اتجاه مصر عبر المدن الساحلية لشمال إفريقيا، متجرة في الذهب واللؤلؤ، والزنجفر والأثوبة والأقمشة والخشب المنقوش

وسلع أخرى. وقد شكلت الجزائر وقتئذ محطة هامة في طريق هذه القوافل. يشهد على ذلك الشارع المسمى هناك بـ "أهل سلا". وفي تونس، كان وصولها ثلاثة أسابيع قبل بداية شهر رمضان مناسبة لرواج تجاري هائل، كان يصل حجمه إلى 100.000 جنيه إسترليني. ثم كان التجار يكترون هناك قوارب لحمل ما تبقى من البضائع إلى الإسكندرية والشرق(129).

الأزمات : التهديد الأوربي والصراع الداخلي :

يا السائلين على القرن تلطاش   كحل ما فيه يبارة
الكسوة كسوة المسلمين   والقلوب قلوب النصارى(130)

لم تخلف الأزمات السياسية، الناتجة عن ضعف السلطة المركزية، تأثيرا كبيرا على المدينة . فغالبا ما كانت تحل عبر قواعد وإجراءات تحكيمية دون المس ببنية المجتمع. وتبين أمثلة كثيرة آليات التدخل الرامية إلى فك التوترات. في عهد مولاي يزيد، الذي تميز بقلاقل عديدة في مختلف أنحاء البلاد، تمردت قبائل الجيش بسبب عجز المخزن عن دفع مستحقاتها. سنة 1790 هاجمت قبيلة الصباح ضواحي الرباط واحتلت شالة. فكان رد فعل السلطان أن جمع عساكر تنتمي إلى قبائل أخرى وجعل على رأسها حاكم سلا، بوعزة القسطلي، فأغارت على الموقع المذكور ونهبته. فغضب أهل العدوتين من ذلك، وخافوا على أنفسهم من عيث هذه القبائل وحمّلوا القسطلي مسؤولية ما حدث. خمس سنوات بعد ذلك، استجاب مولاي سليمان لشكايتهم بتنحية هذا الأخير وتعليقه بأحد أبواب سلا(131).

ومن جهة أخرى، كان مولاي يزيد غالبا ما يوجه مطالب الجند نحو يهود الحواضر. في فاس، مثلا ، سنة 1790، طردوا اليهود من الملاح وهدموا منازلهم ومعابدهم. وقاموا باعتداءات

مماثلة في تطوان والرباط وسلا(132). وهناك رواية يتداولها يهود مدينة سلا، تقدم تفسيرا مغايرا لهذه الأحداث. ومفادها أن السلطان كان له حساب قديم مع اليهود، أيام والده، حيث لم يتمكن من اختطاف امرأة من طائفتهم. لذلك اعتدى على كل الأحياء اليهودية بالمغرب لما أصبح سلطانا. ومع ذلك، تشدد الرواية على الوضع الخاص ليهود العدوتين، والذي امتاز بترجيح الأسلوب السلمي. يشهد على ذلك تدخل حاكمي المدينتين لحماية بني إسرائيل مقابل أدائهم للسلطان 614.000 مثقال.

لكن الاضطرابات التي عاشتها الرباط وسلا، خلال السنوات الأولى من حكم مولاي سليمان، أدت، في نهاية الأمر، إلى ترحيل اليهود عن دورهم وتفريقها على جيرانهم المسلمين. ففي عام 1805، انتقل يهود تطوان والرباط وسلا إلى أحياء جديدة بنيت خصيصا لهم، والتي تعرف باسم "الملاح". وقد شمل هذا الإجراء في مدينة سلا، ما يقرب من 2000 شخص، أي ما يعادل 10% من ساكنة المدينة(133).

وتكمن أسباب نقل يهود العدوتين إلى أحياء خارج نواة المدينة، كما يراها ابن علي في الرواية التالية : "كان اليهود يسكنون وسط المسلمين من قديم، متحصنين بهم من ثورة البوادي عليهم [...] فسئموا مجاورتهم ومخالطتهم مع مخالفة الدين والطباع وعفونة اليهود وما جبلوا عليه من كراهة الإسلام والمسلمين. فاحتال بعض الحذاق من المجاورين لهم في السكنى وتربص [عند] باب الجامع المجاور للملاح القديم [...] حتى صلى الناس العشاء، وكانت الأيام أيام رمضان، فكسر قنينة خمر ببابه ونادى : "معشر الإسلام، هلموا، أنظروا ما يفعله اليهود بمساجدنا من إراقة الخمور وإفساد الصلاة علينا " فأعملت البينة

بذلك ورفعت لأمير المؤمنين مولانا سليمان، فـأمر رحمه الله بأن ينقلوا إلى محل لا يجاور سكنى المسلمين، وبنى لـهم بـدار الصنعة من سلا حارة، وبخارج الرباط حارة أخـرى، وأراح الله المسلمين من سكنى اليهود بينهم. وكان ذلك سـنة 1222هـ / 1807م. وهذا دال على علو همة أهل سلا"(134).

يبدو عزل يهود سلا أمرا صادرا عن السلطان أكـثر ممـا هو نابع من الساكنة المسلمة. ومن جهة أخرى، يبين ابن علـي كراهة اليهود وسهولة تدبيرها من طرف ذوي النفوذ بالمدينـة. والملاحظ أن تقلص دور يهود العدوتين في الوساطات التجاريـة في مرحلة القلاقل، جعل حمايتهم من طرف جيرانهم المسـلمين عبئا ثقيلا. علاوة على ذلك، كان على هؤلاء أن يحموا أنفسـهم من العساكر المتمردة. وبعزل اليهود في حي خاص بهم كان مـن السهل الدفاع عنهم. لم تكن مبادرة السلطان والسلاويين نتيجـة للفوضى أو حتى للاضطهاد. لقد كان المسلمون يعتبرون اليـهود "أهل ذمة"، وكان قد ارتأى عدد من الحكام المغاربة أن أفضـل وسيلة لحمايتهم هي جمعهم في حي منعـزل، أي "المـلاح"(135) الذي كان قد أنشأ بفاس منذ القرن 14. لكن، ظلت مـدن أخـرى وفية للتعايش بين المسلمين واليهود زمنا طويلا(136). وما نـزوع سلا إلى نظام التفرقة إلا دليلا على تقهقر المدينـة فـي مجـال التجارة وضعف الحماية الأمنية أمام خطر القبـائل. فـي هـذه الظروف، من اليهود من لبى نداء سيدي محمـد بـن عبـد الله للرحيل إلى الصويرة والاستقرار بها، على الأقل أولئـك الذيـن ظلوا يتمتعون بنفوذ اقتصادي، ومنهم من رفض مغادرة منزلـه وفضل بالمقابل اعتناق الإسلام للبقاء وسط المدينـة(137). ومـن المحتمل أن تكون بعض العائلات السلاوية التي يعتقد أنها ذات

أصل يهودي، قد دخلت في دين الإسلام في هذه الفترة.

عاشت المدينتان أوقاتا عصيبة . فالوباء الذي اجتاح المغرب سنة 1799 كان شديدا في الرباط ، وفي سلا أيضا، حيث عصف بحياة ثلثي السكان(138). ويخبرنا ابن علي في إحدى تراجمه عن القحط الذي أصاب سلا سنة 1816، والذي كان فظيعا لدرجة أن الناس صلوا صلاة الاستسقاء خمس مرات(139). وضرب الوباء من جديد عام 1818. ويشير ظهير سلطاني، سنة 1824، إلى مدى دورية القحوط وعجز البوادي عن سد الحاجيات الغذائية للسكان والاضطرار إلى استيراد الحبوب من أوربا. فقد عين السلطان من أهل العدوتين تاجرين كبيرين، هما السلاوي الحاج العربي معنينو والرباطي الزهراء للسهر على عملية الاستيراد. " كان الناس في ضيق شديد، زاده الاحتكار حدة. فكان على التجار الجدد بيع القمح المستورد بفائدة لا تتعدى درهما في المثقال الواحد، حتى يستطيع الخاص والعام شراء القمح بدون تمييز"(140).

وقبل ذلك بعامين، عند وفاة مولاي سليمان، كان قد وقع قحط، تعرضت سلا خلاله لتهديدات شديدة من طرف سكان القرى. فقد قطعوا الطرقات ونهبوا الزروع وسرقوا المواشي. كل ذلك وعامل المدينة في عجز تام. في هذه الظروف التي تشبه إلى حد كبير تلك التي أفرزت سلطة الزعيم عبد الحق فنيش، نظم أحمد زنيبر سبل الدفاع عن سلا. كان هذا الرجل ذو مخالطة مع البدو وغوغاء الحاضرة الذين تمر عبرهم عملية إنتاج الزرع وترويجه. وكان بالوقت خصاص وغلاء. وكان قد حصل ذات يوم أن سلب أهل القرى قافلة في طريقها إلى المدينة، متاعا ودوابا. فلما بلغ الأمر العامل ولم يقدر على شيء

قام أحمد زنيبر بجمع مائتي رام من داخل سلا، وخرج بهم ليلا لمهاجمة الدوار الذي أتى منه اللصوص. فباغتوهم وطووا خيامهم وساقوهم إلى المقبرة المجاورة لسيدي ابن عاشر، داخل الأسوار وأجبروهم على النزول هناك. ثم أرسلوا لذويهم ليرجعوا ما سلبوه إذا هم أرادوا أن يطلق سراح الرهائن. فردوا المتاع المسلوب واستعاد الأعراب حريتهم. وحذروهم بقولهم : "إن عدتم عدنا ". ويختم ابن علي هذه الرواية قائلا: " كانت تجري بين أهل سلا والقبائل المجاورة لها من هذا القبيل ما يقضي منه العجب. وفي هذا القدر كفاية"(141).

ثبات صورة:

لم تتغير إذا البنية السياسية لسلا ونظامها وتضامن أهلها بشكل جذري خلال الاضطرابات وتدهور الحياة الاقتصادية بالمدينة. كذلك، لم تفقد سلا صيتها العلمي الكبير. فقد قدم لنا ابن علي، بخصوص الربع الأول من القرن 19، سبع تراجم لعلماء أجلاء. أولهم الفقيه عبد السلام بن عبد الله حركات المتوفى عام 1805 والذي لا تزال مؤلفاته مخطوطة ببعض الخزانات العائلية بسلا (142). ويعد حركات من علماء المدينة وأعيانها. قرأ بفاس على مشايخ عصره، وأخذ الطريقة عن قطب زمانه، مولاي أحمد الصقلي. وله تآليف حسان عديدة في النوازل. وكان له اتصال كبير بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله(143).

وأما آخر ترجمة يعرضها ابن علي حول هذه الفترة فهي للقاضي محمد بن أحمد الجريري الذي حضي باحترام الأجيال اللاحقة. وما الخصال المعهودة والمثالية التي يحصيها المؤرخ السلاوي في الترجمة هاته إلا دليلا على ذلك : " الفقيه العلامة القاضي الكبير المشارك الدراكة الشهير علم الأعيان وواحد

الجهابذة في الضبط والتحرير والإتقان. كان علامة دراكة مدرسا نافعا محققا في العلوم كلها، له اليد الطولى في البلاغة والفقه والحديث والتفسير. وكان يحفظ المقامات الحريرية حفظا متقنا وغيرها من مهمات المصنفات . وله خط رائق. ولما مات معاصره [الفقيه] محمد المير [واصل دروسه القرآنية] ثم لما [...] افتتح التفسير [...] بكى الحاضرون من شدة الفرح [...] وكان يحضر مجلس درسه في التفسير الجم الغفير من أهل الرباط وسلا"(144).

استمرت صورة سلا كمركز للثقافة الإسلامية وكمدينة توارث أهلها المعرفة جيلا بعد جيل، حتى في الفترات العصيبة قبل 1830 وبعدها بقرن من الزمن. وبموازاة مع اعتزازهم بإرثهم الثقافي، وهو أمر يسهل فهمه، ظلوا واثقين بتفوقهم العسكري، لكن دون مبرر. ويصعب تقييم هذه الثقة، خاصة ونحن نعلم طبيعة ميزان القوى بين بلدان شمال إفريقيا والاتساع المتزايد لأوربا كقوة استعمارية. ففي عام 1827، أمر السلطان مولاي عبد الرحمن من جديد رياس البحر في الرباط وسلا للخروج في القراصين ومواصلة الجهاد على طول السواحل المغربية والأوربية المجاورة. وكانت هذه المحاولة قد نجحت في إجبار بعض السفن النمساوية على النزول بمرسى أبي رقراق. لكن الرد كان سريعا. فقد قامت طرادات من النامسا، وعددها ستة، بحصار مرسى العرائش الذي كانت سفنه قد تورطت في العملية. فكانت نتيجة هذا الثأر أن قرر السلطان التخلي عن كل الهجمات البحرية. يقول الناصري بنوع من السذاجة في رؤيته للماضي : "صادف [ذلك] إبان قيام شوكة الفرنج ووفور عددهم وأدواتهم البحرية...ولكد ذلك استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر"(145).

109 ـــ الإتحاف الوجيز، ص36.

110) ـــ نفسه ، ص: 36 — 37. ـــ استعمل عتاد القصبة المخربة في تحصين أسوار المدينة كما انتقلت أحباسها إلى مسجد سيدي أحمد حجي.

111) ـــ نفسه ، ص 103 ، مدن المغرب وقبائله، ج2 ، ص 92 وما تلاها.

112) ـــ الاستقصا، طبعة القاهرة ، ج4 ، ص 81 ، 88 وما تلاها. يقول الناصري بخصوص مشروع الرملة أنها كانت مدينة عجيبة ذات منازل وقصبات، لا مثيل لها في الحواضر الأخرى. ويذكر أحد اليهود، بإلحاح، ما ترويه أدبياتهم حول اهمية هذه المدينة باعتبارها مركزا كبيرا للثقافة اليهودية. فقد كان محجا لليهود ما بين رأس السنة ويوم الفدي، وقصدهم في ذلك جمع أغصان الشجر عند قبر أحد الربانيين اليهود ؟ ومعلوم أن سلا تحتضن خارج أسوارها على يمين باب الخباز أو باب سيدي بوحاجة ضريح ولي مسلم ، سيدي بوحاجة، المدعو أحيانا قاضي حاجة. ويقال أن زواره هم من المسلمين واليهود على السواء. وهو ترابط مدهش ن وإن كانت ظاهرة توقير نفس الولي من طرف الطائفتين معا، أمر مألوف بالمغرب ، أنظر :

L. Voinot , Pèlerinages Judéo-musulmans du Maroc, Parid 1948.

113) ـــ الاستقصا ، ج4 ، ص 103 وما تلاها، الإتحاف الوجيز، ص 103. ـــ يذكر ابن علي أشعارا كان قد نظمها زنيبر. يعبر فيها عن حسرته لفراق أخوته وشيوخه ، لأنه كان منفيا في الرباط بسبب ما عانته أسرته من محن على يد عبد الحق:"محنة أصابت قبيلته من عامل سلا".ن.م. ص 117.

114) مدن المغرب وقبائله، ج1 ، ص 97. الاستقصا، ج 4 ، ص 103. يقول الناصري أنهم عينوا على رأس الطبجية في عدة مراسي ومنحت لهم دورا وأملاكا ومرتبات عالية، فاستعادوا الغنى والجاه في البلاد. وكان أحدهم قد أصبح عاملا للمدينة في عهد مولاي عبد الرحمن .

115) ـــ مدن للغرب وقبائله، ج1 ، ص 128.

116) ـــ الاستقصا، ج 4 ، ص 128.

117) ـــ نفسه ، ص99 وما تلاها.

118) ـــ نفسه.

119) ـــ تعد عائلة عواد من أهم العائلات السلاوية. ولا زال حفدة الأميرال يحتفظون بهذا الظهير.

120) – C. Penz, Journal du Consulat général de France au Maroc (1767 – 85) casablanca ; 1943, pp. 103 , 126 , 141.

121) ـــ صور هذه الظهائر محفوظة بالخزانة العامة في الرباط.

122) ـــ الإتحاف الوجيز، ص 39.

123) ـــ الضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة، مخطوط الخزانة العامة، الرباط رقم 666. ـــ يذكر هذا المؤرخ، بخصوص نفس الفترة، أشخاص آخرين من سلا يديرون السفن.

124) ـــ الإتحاف الوجيز، ص 39. ـــ في الواقع كان قصف سلا سنة 1851 بالمدفعية فاجعة بالمدينة.

125) ـــ ك. براون، ن.م. ص 38 وما تلاها.

126) ـــ منع مرسوم صادر سنة 1816 الرعايا المسلمين من السفر إلى أوربا وسمح بذلك لليهود فقط شـــريطة الذهاب لأجل التجارة . أنظر :

Lové et P. Fournel (eds.) Les Traités du Maroc, Paris , 1904, I, p. 505.

127) ـــ ج.ل. ميج، ن.م. ، ج 2 ، ص 33 — 35.

128) ـــ مدن المغرب وقبائله ، ج 1 ، ص 168 وما تلاها.

129) – M.Emerit, « A propos de la caravane de Salé », in les Cahiers de Tunisie, n° 11, 1955 , pp. 466 – 467.

130) ـــ عن المصادر الدفينة. . .السلسلة الثانية، ج2 ، ص 116 ، ص.1. ـــ تنسب هذه القطعة الزجلية إلى الشاعر الشعبي الشهير سيدي عبد الرحمن المجذوب.

131) – H. Basset et E. Levi – Provençal, chella. Une nécropole mérinide , Paris 1923,p.29.

132) ـــ أنظر "إخبارية فاس" في هسبريس ، 1934 ، ص88.

133) ـــ مدن المغرب وقبائله، ج1 ، ص 102. ـــ ناهز عدد اليهود القاطنين بالرباط وسلا في عهد مـــولاي يزيد 6000 نفس . أما في سلا وحدها، فقد وصل عددهم ، عند مطلع القرن الحالي، إلى 2000 شخص مـــن أصل 20000 نسمة.

134) ـــ الإتحاف الوجيز، ص 40. ـــ طلب ملتمس مؤرخ ب 15 — 5 — 1806 ، يحوي إمضـــاء إحـــدى وثلاثين شاهدا بالإضافة إلى القاضي محمد الهاشمي أطوبي، بترحيل اليهود من الملاح القديم لتسببهم في إهـــال المسجد وتدنيسه، ويوجد عقد آخر بتاريخ 31 — 7 — 1807 يسمح بإقامة ملاح جديد . أنظر :

J. Goulven, « Esquisse historique des mellahs de Rabat – Salé », in Bulletin de la Société de Géographie, V III, 1922, pp. 29 – 31.

135) ـــ أنظر "للملاح" ، موسوعة الإسلام، حيث يفسر كولان أصل هذه الكلمة التي غالبا مـــا تعرضـــت للتحريف في الكتابات المرتبطة بالمغرب. ويذكر أن أول حي يعرف بالملاح كان محلا قديما للملح بفاس. فالاسم لا علاقة له بالمعاني المحتقرة لليهود، مثل "ملاحي الرؤوس".

136) ـــ بالفعل لازال هذا الأمر قائما في صفرو إلى اليوم.

137) ـــ حول الدليل اللساني لاهتداء اليهود إلى الإسلام، في هذه الفترة، أنظر :

L. Brunot, Textes arabes de Rabat, Paris, 1931 (Introduction).

138) – J. Caillé, la petites histoire de Rabat, Casablanca, s.d., p. 82.

139) ـــ الإتحاف الوجيز، ص 129.

140) ــ مجموعة السايسي ، خ.ع. الرباط.

141) ــ الإتحاف الوجيز، ص 38 وما تلاها

142) ــ لقد تمكنت من الاطلاع على بعض هذه الأعمال وخصوصا الفتاوى الموجودة بخزانة عبد الله الصبيحي.

143) ــ الإتحاف الوجيز ، ص 124.

144) ــ نفسه، ص 130 وما تلاها.

145) ــ الاستقصا ، ج4 ، ص 183 – 184.

خاتمة

المظهر التاريخي للغة

يدفعنا هذا الموجز التاريخي إلى التساؤل حول السمات العامة والثابتة والمتراكمة لمدينة سلا وماضيها ؟ أولا، موقعها الساحلي الملائم. فهي تتوفر على مرسى جيد يقع عند التقاء المحيط الأطلسي بمصب نهر أبي رقراق. وعليه، شكلت مركزا ملاحيا للتجارة المحيطية، تبادل فيه التجار المحليون وأيضا القادمون من دول ومدن البحر الأبيض المتوسط وشمال الأطلسي، المنتجات الحرفية والمواد الخام. والواقع أن للمراسي صفات مميزة. لقد نعتها فرناند بروديل بملتقى البر والبحر. ومن ثم، تكتسب أهمية بالغة. فهي تلتهم ما يرد من السلع، تجمعها وتوزعها(146).

تمتد الطرق التجارية، من سلا وإليها، حتى إلى السودان الغربي والبحر الأبيض المتوسط، مرورا بشمال إفريقيا. فقد أصبحت المدينة، خلال المرحلة الإسلامية، سوقا برية ومرسى في نفس الوقت، معتمدة في اقتصادها على التجارة أي الاستيراد والتصدير، ومداخيل الجباية والرساميل. لقد شهد المؤرخون الذين زاروها، من القرن 12 إلى 17، على رخاء كبير : رواج نقدي، غنى، رغد عيش. ويتصل ما وصفوه من رفاهية وحضارة زاهية بالتخصص الهائل للصنائع وتعددها ومهارة حرفييها. لقد اعتبر ابن خلدون، في القرن14، انطلاقا من تجربته الخاصة، وهو يتحدث عن معاش الحاضرة، أن الترف وتخصص الصنائع عامل مميز بين المدينة والبادية. برأيه، يقوم التمدن على أساس تعدد الكماليات ونماء الحرف وأثرهما على رفاهية الناس(147).

كذلك، استقطبت سلا نازحين جدد : البربر من مختلف أنحاء شمال إفريقيا القبائل العربية المجاورة، اليهود وأهل

الأندلس والمدن المغاربية. لقد اشتهرت المدينة، منذ وقت مبكر، بجمعها بين مقومات الحضارة والبداوة. وتعكس حوماتها الأصول المتباينة للسكان. فالقادمون من البادية واصلوا العمل في الفلاحة لتوفر حدائق متعددة وأحواز ذات مراعي وحقول خصبة.

ويفسر هذا الاستقطاب بعامل آخر، ولو أنه غير ملموس. فقد كانت المدينة تخما منذ العهد الروماني. وفي المرحلة الإسلامية، خلال القرون الأولى على الأقل، كان حوض أبي رقراق رباطا للجهاد. وفي وقت لاحق، تأسست مدينة الرباط لتعبئة الجنود من أجل فتح بإسبانيا. وبعد ذلك، استقر القراصنة في الجمهوريات الثلاث للوادي ونظموا هجمات في أعالي البحار وسواحل أوربا بنفس الروح الجهادية. وفي القرن 17 كانت سلا المدينة الساحلية الوحيدة الخارجة عن قبضة الإسبان والبرطقيز والقاعدة الحربية للدفاع عن البلاد، تحت زعامة المجاهد والمحارب الشهير العياشي.

وبالعلاقة مع هذه السمة العسكرية، اشتهرت سلا كمقصد للصلحاء. فقد كانت الحرب جهادا. علينا أن لا ننسى أن الرباط لم يكن حامية للعساكر فقط، بل زاوية أيضا، أي مكانا للعبادة والزهد. كانت سلا تعتبر قبلة للأولياء والعلماء. فقد كان أولياؤها الأوائل ذوو علم وتقوى. كانوا صلحاء ، يتبرك بهم الناس ويأخذون المعرفة عليهم. فقد تتلمذ العياشي، وهو من أبرز الأولياء المجاهدين وأشهرهم على يد الشيخ، الولي الصالح سيدي عبد الله بن حسون، الذي قصد سلا بحثا عن السكينة(148). لقد رأينا كيف قدم الشيخ إلى المدينة، كيف استقبله صلحاؤها أجمعين، الأحياء منهم والأموات، كما تقول الأسطورة، وكيف

أقنعهم ببركته الخاصة لينضاف إليهم ، بل وليترأسهم.

ولسهم العظماء الذين أقاموا بالمدينة في شهرتها. فقد فضل السلاطين الإقامة بها أو بالرباط، صيفا، وشيدوا هناك مآثر عديدة : مدرسات، مساجد، زوايا وأضرحة، وخلد الناس ذاكرة الصلحاء واختلقوا سمعتهم بتحبيس الأملاك لأجل بناء المقابر وصيانتها، وتنظيم المواسم للتبرك بهم. لقد أشترك أهل سلا على نحو فعلي في ابتكار تاريخهم الملحمي الخاص وصورتهم التاريخية.

لم تشتهر سلا فقط بسادلتها، بل أيضا بإشعاعها العلمي والديني. فقد قصدها الطلاب للأخذ عن شيوخ كبار تعاقبوا بها جيلا بعد جيل. فكانت مدينة للعلم والفنادق والمواسم والكتب، كما وكيفا، وملتقى للعلماء والأحبة. لقد مثلت بحق مركزا دينيا وثقافيا. فقد شهد كل جيل فضلاء وفقهاء، وكأن المعرفة تتحدر من سلالات معينة بالمدينة.

لقد مثل الإحساس بالتفوق في أمور الجهاد والتقوى والعلم والأخلاق سمة بارزة في الصورة التي كونها السلاويون عن أنفسهم. وشددت الأسطورة المؤسسة للمدينة من طرف الشيخ الأندلسي ضمنيا على هوية سلا كحاضرة إسلامية ذات ثقافة راقية. لقد اعتبر الناس حفدته، الذين لازالوا على قيد الحياة إلى اليوم وصلحاء آخرين، بيت مجد ووقار. إنه المثال : الانتماء إلى عائلة عريقة وفاضلة أبا عن جد. وقياسا على ذلك، نظرت المدينة إلى ساكنتها كعائلة واحدة "أهل سلا"، الذين لازالوا يمتلكون صفات الشيخ.

وتتجانس الرؤية التاريخية للمدينة وأهلها، سواء في النظرة الذاتية لهؤلاء أو في نظرة الآخرين إليهم، اللائمين منهم

والممجدين. لقد رفضوا في القرن 17 استقبال المهاجرين الأندلسيين، لافتقادهم مؤهلات الإقامة والاندماج. واعتقدوا أنهم أكثر تشبعا بالإسلام من جيرانهم. وهو موقف مدحه البعض وأعابه البعض الآخر، لإفراطه الروحي . المهم من هذا كله هو وضوح صورة شخصية المدينة، مما يجعل فهمنا مقبولا من طرف أهل المدينة وباقي الملاحظين.

لقد فسرنا أهم الأحداث التاريخية في حياة المدينة انطلاقا من هذه الصورة : الحرية والسيادة، الوحدة والتوافق، الشهامة والاعتزاز، التقوى والخلق. إنها صورة تخدم أغراضا محددة: تأمين امتيازات السلاويين الاقتصادية ولأدوارهم السياسية. وموازاة مع هذه الصورة وتفاعلاتها التاريخية، أدرك أهل سلا على نحو عملي أن التعاون مع السلطة المركزية والامتثال لها هو الكفيل بضمان الأمن والاستقرار.

****

146) ــ ف. بروديل ، ن.م. ، ص 260 وما تلاها.

147) ــ مقدمة ابن خلدون، طبعة لندن، 1967 ،ص 263 وما تلاها. ــ وحول أفكار ابن خلدون بخصوص المدينة . أنظر: M. Mahdi, Ibn Khaldun's philosophy of History, chicago, 1964, pp.209ff.

148) ــ حسب ابن خلدون تعتبر السكينة الوجه الثاني بعد الترف في قيام المدينة.

الملحـــــق الأول

ملاحظات حول المؤرخين السلاويين

استندت هذه الدراسة من حيث المصادر المكتوبة على الأعمال التاريخية لمؤرخين سلاويين، أحمد بن خالد الناصري ومحمد بن علي الدكالي، اللذين جسدا، وبجلاء سواء على مستوى التأليف أو الحياة الخاصة، أهم مظاهر استمرارية التمثل الذاتي لدى أهل سلا في فترة غلب عليها الاضطراب والتغير. لقد أجبرتنا قلة المادة المصدرية على الاعتماد، بشكل واسع على أخبار هذين المؤرخين ونظرتهما. فقد كانا من أنبل رجالات المدينة وأوفرها نصيبا في علوم الدين ولسلاك المخزن. لذلك يبدو صلب هذا البحث متأثرا بأفضلية هذه الشريحة من الساكنة. وعليه، يجب الأخذ بعين الاعتبار ما تعكسه هذه المصادر من عقلية لمثقفي القرن التاسع عشر ومثال لدى نخبة الحواضر وتصورهم للعالم وإحساسهم. غير أنني تعاملت في كل مراحل هذه الدراسة بأسلوب نقدي مع مختلف النصوص وبينت كيف أن البنية الاجتماعية والقيم الثقافية للمدينة لم تكونا متجانستين بالشكل الذي أراد إظهاره هذان المؤرخان .لذلك ارتأيت في ختام هذا الموجز تقديم بعض المعطيات الإضافية حولهما.

ألف أحمد بن خالد الناصري مختصرا تاريخيا تحت عنوان "كتاب الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى"، نشره بالقاهرة عام 1894 على نفقته الخاصة. أما الطبعة الثانية المنقحة والمسبوقة بترجمة المؤلف، فقد نشرها أبناؤه، محمد وجعفر في تسعة مجلدات بالدار البيضاء سنوات 1954 – 1956. وقد ترجمت أجزاء من هذا العمل إلى الفرنسية بالأرشيفات المغربية.

لقد سبق لي أن قدمت نبذة عن حياة المؤلف في مقالة خاصة(149)، اعتمدت فيها على مادة أبناءه وأطروحة ليفي بروفانسال،"مؤرخو الشرفاء"، الصادرة عام 1920. فقد تحدث هذا

الأخير عن عمل الناصري وحلل بإسهاب أسلوبه ومصادره وقيمته التاريخية، موضحا أن المؤرخ سار على نهج المؤرخين الأقدمين، لكنه في نفس الوقت أفلح في جمع أخبار التاريخ السياسي للمغرب من إخباريات وتراجم متعددة في نص واحد. غير أن مادته حول سلا شكلت مونوغرافية داخل التاريخ العام حيث غالبا ما اشتملت على معلومات جديدة، سواء الكتابية منها أو الشهفية(150). وللناصري أيضا تآليف هامة عديدة حول المرينيين والطرق الدينية في القرن التاسع عشر، لاتزال مخطوطة ومحفوظة في خزانة أبنائه. والرجاء أن توضع قريبا بيد الباحثين في تاريخ المغرب وأن تنجز دراسة هائلة حول حيلة هذا المؤرخ الكبير وعمله.

المؤرخ الثاني هو محمد بن علي الدكالي الذي تتلمذ على يد الناصري وترجم له (151). لقد خلف تآليفات مهمة حول سلا ومواضيع أخرى، لا تزال كلها مخطوطة، لكن جردها الكامل متوفر في بيان تأبيني منشور بالعدد 647 من جريدة "السعادة" لفاتح غشت 1945. ولد ابن علي بسلا عام 1868 حيث تلقى تربية دينية تقليدية على يد فطاحلة الوقت، أمثال إبراهيم بن الفقيه الجريري وعبد الله بن خضراء وأحمد بن خالد النصاري وأحمد بن الفقيه الجريري. وتابع سنة 1885 دراساته بجامع القرويين بفاس تحت إمرة جعفر الكتاني وفقهاء آخرين. ثم عاد لسلا عام 1890 وشرع في التدريس بالمؤسسات القرآنية. بعد ذلك، بسبع سنوات، صار عدلا بسلا ثم بطنجة. وعند رجوعه إلى مسقط رأسه سنة 1902 اشتغل كاتبا في الباشوية لدى عبد الله بن سعيد والطيب الصبيحي وفي خزينة المخزن لدى عبد الهادي زنيبر بمراكش. وابتداءا من عام 1910 انتقل للعمل في السلك المخزني

في فاس والرباط على عهدي مولاي عبد الحفيظ ومولاي يوسف. وإبان الحماية أصبح ابن علي مؤرخا رسميا للقصر وتعددت تآليفه.

إن الثناء على ابن علي يقتضي الإشارة إلى ما يقرب من خمسة عشر مؤلفا، أهمها ذلك العمل المكون من أربعة أجزاء حول ساكنتي سلا والرباط، "أدواح البستان في أخبار العدوتين وما درج بهما من الأعيان"، والمعروف أيضا تحت عنوان "الحدائق". وعلى الرغم من جهودي في التنقيب عن هذا الكتاب فإنني لم أعثر عليه. لكن مخطوطا آخر محفوظا بالخزانة العامة بالرباط، ضمن المجموعة الكتانية تحت رقم 1264، يضم بعض التقاييد المرتبطة بهذا العمل.

ونجد من بين أعمال ابن علي، المعروفة والمعتمدة في هذه الدراسة، ما يلي :

1 ـ الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين، 1895، 131 صفحة. وتوجد منه ثلاث نسخ بالخزانة العامة بالرباط تحت أرقام د 1320، د 20 وك 2333 (152). وقد اعتمدت النسخة الأولى بالأساس، لوضوحها النسبي. لقد صرح ابن علي في إحدى رسائله أن الكتاب يتضمن الخبر عن عدوتي سلا و"وصفا جغرافيا علميا أخلاقيا تاريخيا مما يتعلق بمساجدها ومدارسها وزواياها وأسوارها وأبراجها وأسواقها ومعارف أهلها، وما يحسنون من الصنائع والحرف والمهن، وأخلاقهم وعوائدهم وتراجم كثير من علمائها وصلحائها وملوكها"، وأنه "[أهداه] لمولاي عبد العزيز سنة 1313 موافق 1895 فاستحسنه و[أجازه] عليه بمائة ريال وكسوة وظهير بالتوقير والاحترام والتنويه"(153).

في هذا العمل، اعتمد ابن علي، بشكل واسع، على ما وفرته له

مانته الخاصة وأيضا ما منحته إياه التراكمات المعرفية للمدينة المحفوظة في مستندات معاصريه. وعلى الرغم مما يظهره المؤلف من مثالية إزاء الماضي وتقليدية في الكتابة فإنه يقدم، مع ذلك، أخبارا كثيرة حول الحياة بسلا في القرن التاسع عشر ويظل مصدرا دائم الفائدة.

2 ـ إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا، المتوفر في نسختين بالخزانة العامة بالرباط تحت رقمي د 11 وك 466. وهو عبارة عن أرجوزة مكونة من 2810 بيتا في 134 صفحة ألفها سنة 1912، ذلك الشعر الشعبي الذي نظم فيه النحويون والفقهاء والمؤرخون(154). ورغم أن الكتاب أقل أهمية من سابقه من الوجهة الإخبارية فإنه يمنح إمكانية التعرف على مستوى إدراك المؤلف وأفكاره. لقد بين ابن علي في ختام أرجوزته أنه قد نظمها كرد على الوزير ابن الخطيب، رجل القرن 14، الذي كان قد أساء لمدينة سلا في معرض مقارنته إياها بمالقة، منتهكا بذلك، برأي المؤلف، آداب السلوك، لأنه كان يسعى فقط لإرضاء عاهلي الأندلس. من هنا جاءت فكرة هذه الأرجوزة لتفنيد أقوال ابن الخطيب وإظهار الوجه الحقيقي للمدينة. ومن الأعمال الأخرى لابن علي:

ـ تأليف حول شالة، "الدرة اليتيمة في أخبار شالة الحديثة والقديمة"، بإيعاز من القبطان الفرنسي دوزي. وهو عمل كان قد اطلع عليه، بحسب تقييد تابيني، المقيم العام ليوطي الذي استحسنه وأمر بنقله إلى الفرنسية.

ـ تأليف في النحو العربي.

ـ تأليف في تاريخ سك النقود بالمغرب.

ـ أخبار جامع حسان.

ـ رسالة في تاريخ المغرب القديم والحديث.
ـ رسالة في أهل العدوتين.
ـ تأليف في الحسبة في الإسلام وأحوال المحتسب مع أهل الحرف والصنائع والمهن والتجار والباعة وسرد أسماء أصحابها.
ـ تأليف في أحوال اليهود بالمغرب قديما وحديثا.
ـ تأليف في بني وطاس.
ـ مقامة أدبية من 260 بيتا.

ونود في نهاية هذه النبذة تقديم مقطع من أرجوزة كان قد نظمها ابن علي سنة 1912 وأهداها للسلطان مولاي يوسف. وهي أبيات ذات أهمية خاصة نظرا لما تعكسه من نظرات تاريخية لنموذج المثقف التقليدي. إنه المقطع الذي توجد على حاشيته عبارة "مدنية أوربا في عصرنا الحاضر":

قال المترجز هاكم فائدة ... ليست بحشوة ولا بزائدة
تبصرة لمن يريد أن يرى ... أحوال غير مسلم من الورى
فإن هذا الجيل جيل معرفة ... بحالة الدنيا معان صفة
وأمم الغرب أحكموا العمل ... وشاركوا الناس بما قل وجل
وامتلكوا بما بدا مقدرة ... وعمروا من البسيط أوفره
وأتقنوا معرفة الأشياء ... وصيروا العمران في نماء
وشبروا أخلاق جل الناس ... بكل قطر دون ما تناسي
وأطلقوا العقل من العقال ... وسرحوا الفكر بكل حال
واتسموا بالعلم والعرفان ... وبالتمصر بكل شان
وأحرزوا السبق بلا نكران ... إذ حصلوا معارف العمران
فوصلوا الشاسع من أقطار ... وخاطبوا بالبرق والأوتار

وسبحوا بالبحر والفضاء   وهبطوا تحت طباق الماء

واكتشفوا غرائب الأكوان   واخترعوا عجائب الإمكان

وملكوا أزمة التدبير   وسيطروا سيطرة الخبير

ولو مشى الشرق كسير الغرب   لأحرز الفوز بكل ضرب

لكنه أهمل ما قد خولا   من المعارف فظل عاطلا

ألم يك الشرق عجيب الحال   في العلم والقوة والمال

ألم يك الشرق مناط المجد   في كل ما قد ناله بجد

ألم يكن يدير أمر العالم   شرقا وغربا برفيع الهمم

ألم تكن معارف الإسلام   معشوقة لسائر الأقوام

ألم تكن دستور أسباب الرقي   وشرفا قد حل فوق المفرق

فقل على الأجيال قول حق   من جد سار في معالي السبق

ومن توانى قد أضاع المجدا   وأهمل النفس فحاز الصدا (155)

*****

149) – K. BROWN, Portrait d'un savant marocain au XIX° siècle, in BESM. , octobre 1971.

150) ـــ أنظر تحديدا ، ص 366 – 367. أما بخصوص تقييم ليفي بروفانسال لعمل الناصري، راجع ص 350 – 368 ، 396 – 399. وعن هفوات كتاب الاستقصا، أنظر :

R. RICARD, Les ravages de l'Istiqsa Hesperis, 1956, pp. 201/.20

151) ـــ " تخليد المآثر وتشييد المفاخر بترجمة الشيخ شهاب الدين بن ناصر"، أورده ليفي بروفانسال، ن.م.ص 351، لكنني لم اتوفق في العثور عليه.

152) ـــ يتعلق الأمر بخزانة عبد الحي الكتاني المحفوظة بالوثائق العامة بالرباط.

153) ـــ أنظر عبد السلام بن سودة، دليل مورخ المغرب الأقصى، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 1960 ، ج1 ،

ص28. ـــ ويبدو تاريخ 1895 مبكرا جدا. فحسن الدكالي ، في هذا الوقت، لم يكن يتجاوز فصلا السابعة عشرة، وثمة إشارة بالمخطوط تدل على أن تاريخ الانتهاء من كتابته كان حوالي 1907 ، أواخر العهد العزيزي.

154) ـــ أنظر ليفي بروفانسال،ن.م. ص: 42 :"خلف لنا المخيال الخصب لشعراء الانتحال الذين اعتقدوا كتابة التاريخ عبر النظم، كمّاً كبيرا من هذه الإنتاجات. لكنها ، من حسن الحظ ، قصيرة في مجملها، لأنها فقيرة المحتوى والشكل".

155) ـــ إتحاف أشرف الملا...، ص :85 — 86.

الملحـــق الثانـــي

شالة - سلا - الرباط

مرحلة ما قبل الإسلام

كان المجال المحاذي لمصب أبي رقراق موقعا لحضارة مدنية منذ ألفيتين ونصف من الزمن على الأقل. فقد شهد، على الأرجح، مستوطنات بشرية قبل العصرين الباليوتيكي والنيوليتيكي (156). ففي هضبة سلا تم الكشف على آثار "حضارة الحصبة" من العصر الحجري القديم(157). ويعد السراج الزيتي الذي عثر عليه الباحث بوب في شالة أقدم قطعة حضارية بالمنطقة، تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد. فقد كانت شالة مركزا تجاريا فينيقيا منذ القرن السابع ق.م بالموازاة مع مواقع لكسوس وموغادور. فأنقاضها التي لا تزال في طور الحفر والتنقيب تظهر مدى أهمية المستوطنات النيو- فينيقية، على الأقل منذ ما قبل القرن الثالث ق.م(158).

فوق هذا المكان، يوجد خراب سلا كولونيا الذي يعتبر موقعا حدوديا هاما في إقليم موريطانيا الطنجية. إنه "الليمس" الروماني الذي تم التعرف عليه جنوب الرباط، على بعد خمسة أميال تقريبا. ويعد موقع سلا كولونيا غنيا بالمآثر والنقوش التي هي اليوم قيد التنقيب، في حين لم يخلف لنا الجغارفة الرومان إلا نصوصا هزيلة. فقد اكتفى بلين الشيخ، في القرن الأول بإيراد أخبار مفادها أن مدينة سلا الواقعة قرب النهر الحامل لذات الإسم، تحاذي خلاءا ترعى فيه قطعان الفيلة ويسكنه البربر(159).

لقد اقتبست سلا المسلمة التي تأسست بعد بضعة قرون على الضفة اليمنى من النهر، إسم هاتين المدينتين القديمتين. ثمة مراوغة لسانية في هذه المشكلة : كيف تحول الإسم القرطاجي والروماني إلى اسم عربي ينعت موقعا يطل على المحيط. فبالنظر إلى شكل التسمية يظهر تقارب واضح بين كلمتي شالة وسلا. وتشير قطعة نقدية قرطاجية عليها نقش عبري – فينيقي

إلى حروف ش – ل – ه، قد تقرأ حسب نطق فينيقي مفترض سلا أو شالة(160). وقد أكد ليفي برفانسال أن كلمة سلا الرومانية هي تحريف لاتيني لشالة الفينيقية، طبقا لأمثلة عدة حول تلتين أسماء الأماكن الفينيقية حيث تصير الشين سينا، وأن الأهالي قد حافظوا في لسانهم على التسمية الأصلية لشالة. وفيما بعد، تبنى العرب الصيغتين معا، تعاوضيا، إلى حدود القرن الثاني عشر. وابتداءا من هذا التاريخ بدأ الفصل في استعمال الكلمتين للتمييز بين الموقع الروماني القديم والمدينة المسلمة الجديدة المطلة على المحيط. واكتفى المؤرخون العرب، على حيرتهم من نعت الموقع وتحديد زمن تأسيسه، بترديد ما تقوله الأساطير من أن الإسم ينحدر من سلا ابن حام ابن نوح، أو أن المدينة قد بناها الإسكندر الأكبر أو افريقش الحميري، أو أنها أقدم موقع أسسه البربر بالمغرب. ومن جهته، حصر الناصري قوله في نسب تأسيس المدن القديمة كسبتة وطنجة وسلا وشالة ووليلي إلى الإفرنج أو من سبقوهم كالقرطاجيين. أما اليهود فيحيلون سلا على مدينة سليمان الحكيم. وختاما، ثمة فرضية تتصل باشتقاق أمازيغي.ف "أسلا" قد تدل على "الصخر" في إشارة إلى طبغرافية شالة والأودابة(161).

لقد كانت سلا كولونيا الرومانية أكثر سعة من شالة بما في ذلك المستوطنات المحاذية للنهر. أما على الضفة اليمنى بجانب الوادي، في المكان المسمى عين أسمير، فيوجد خراب لمدينة قديمة نعتها المهتمون الفرنسيون خلال العشر سنوات الأولى من الحماية، استنادا إلى شهادة المؤرخ السلاوي ابن علي، كودس. وهي مدينة يُعتقد أن أراضيها كانت تتصل بالموقع الحالي لسلا حيث يدفن الناس فيها موتاهم. وبحسب هذا

المصدر، قاومت كودس الرومان خلال القرن الثاني ق.م واستعملت فيما بعد كمخزن للحبوب، ثم دمرت في وقت لاحق من طرف الوندال(162).

ونجد أيضا من المؤشرات الدالة على الاستيطان ما قبل الإسلامي للضفة اليمنى للوادي، بمدينة سلا أو بالقرب منها، ما كشفت عنه مؤخرا الصور الجوية بخصوص مقطع لطريق رومانية، شرق المدينة بالجهة الشمالية للنهر. وبناءا على هذه الصور والنقود الرومانية التي تعود إلى ما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين وبقايا معاصر الخمر المكتشفة بسلا وضواحيها يمكن القول بوجود شكل ما من الاستيطان الروماني بالمنطقة. وتوحي أيضا التحاليل الإضافية للصور الجوية أن الطريق الرئيسية الشمالية – الجنوبية لسلا وسورها الشرقي قد يكونان امتدادا للحزام الروماني. لذلك، من المحتمل أن يكون الاستيطان الروماني المبكر قد حدد موقع المدينة الإسلامية واتجاهها(163).

والواقع، لا يزال تاريخ هذه المنطقة من حوض أبي رقراق خلال المرحلة الممتدة ما بين تفكك المستوطنات الرومانية والفتح الإسلامي، غامضا(164). فالهجمات الوندالية خربت كل الآثار الرومانية بالمنطقة، باستثناء شالة. ومهما يكن، يظل الصمت مخيما على كتابات المؤرخين حول مرحلة ما بين الغزو الوندالي في القرن الخامس ومجيء الإسلام قرنين بعد ذلك.

156) ـــ تنتمي الأحافير البشرية القديمة المكتشفة إلى الإنسان ماقبل النياندرتالي. راجع :
H.V. VALLOIS, L'homme de Rabat, in Bulletin d'Ar néologie Marocaine, V.III, 1958, pp. 87 – 92.

157) – G.CHOUBERT et J. ROCHE , Note sur les industries anciennes du plateau de Ssl**é**, in B.A.M., V.I, 1956 , pp. 9 – 38.

158) ـــ لأحدثي مدينا للسيد بوب، مدير الحفريات التابعة لمتحف الآثار بالرباط لما قدمه لي من معلومـــات.
أنظر مقالته الأخيرة : « Fouilles archéologiques à Sala, Hesperis, VII, 1966, 23 – 32. » وأيضا :
J. CARCOPINO , Le Maroc antique, Paris, 1944, p. 220 وللمزيد من المعطيات حول المواد المنشورة
أنظر : "المغرب" في سلسلة « Les Guides Bleus » ، باريز ، 1966.

159) – R. ROGET ,Le Maroc chey les auteurs anciens, Paris, 1924, p. 30.

160) – M. TISSOT , Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitaine, in Mémoires présentés par divers savants à l'académie des inscriptions et belles – lettres, Paris, 1878, p. 231 , n°1.

161) – E. LEVI – PROVENCAL et H. BASSET, Chella : Une nécropole mérinide, Hesperis, 1922, 5 , n. 1 , Ibn Said Gharnati, in Extraits inédits relatifs au Maghreb, éd . E. FAGNAN, Constantine, 1900, p. 14 , ZAYANI, in Une description géographique du Maroc d'Az – Zayany, Trad. G. SALMON , A.M. , 1906, p. 451 – 452 , Istiqsa, éd. Caire, III, p. 330, J. GOULVEN, Notes sur les origines anciennes des Usraélites au Maroc, Hesperis, 1921 , p. 329.
وأشكر الأستاذ جيفرتز على الشروحات التي قدمها لي بخصوص تعقيدات الفينيقية، وأيضا الأستاذ كولان على إيحاءاته المتصلة بالأمازيغية.

162) – M. De PERIGNY , Au Maroc, Casablanca, Rabat, Meknès, Paris , 1919, p. 97.
أنظر أيضا مدن المغرب وقبائله، I ، 25.

163) – R. THOUVENOT , Les vestiges de la route romaine de Salé à l'O.
وأود هنا أن أشكر الأستاذ محمد الناصري على ملاحظاته بخصوص الحزام الرومـــاني وأيضا على اهتمامه بأبحاثي ومساعدته لي.

164) – C.A. JULIEN , Histoire de l'Afrique du Nord, Paris , 1961, t.1 , p. 233 et s.

بيبليوغرافيا

ا ــ مخطوطات

1 ــ مستندات عربية :

أ . وثائق أسرية:

- ابــن سعيد (العربي)، المراسلات الرسمية لمحمد وعبد الله بن سعيد 1885-1925.
- الصبيحي (عبد الله)، أوراق محمد الساسي.
- عواد (عبد السلام)، مراسلات وتقاييد محمد عواد، 1890 – 1930.

ب ــ الوثائق العامة – الرباط.

- ابن علي الدكالي (محمد)، إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا ، د11 ، ك 466.
- ابن علي الدكالي(محمد)، كتاب الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتيــن لمــولاي عبد العزيز ، د1320 ، د 42 ، ك 2333.
- ابن علي الدكالي (محمد)، الكناشة ك 1264 .
- العباسي (محمد) ، مجموعة وثائق (ميكروفيلم).
- الضعيف، تاريخ الضعيف، رقم 666.

ج ــ وثائق المحافظة العقارية – الرباط

- سجلات أملاك سلا.

د ــ الوثائق الملكية – الرباط

- الشؤون الخارجية، رقم 9 "الغارات"

هــ ــ الخزانة الملكية

- حوالات احباس سلا (1885) رقم 612.

2 ـ مستندات أوروبية ـ باريز.

1. Centres de Hautes Etudes Administratives sur l'Afrique et l'Asie Modernes (C.H.E.A.M.).
   Abbadie, M. – Rôle joué par Salé dans l'évolution de l'opinion marocaine au cours de ces dernières années (1937), Ms. N°.340.

Forichon, J. – Commission du plan d'urbanisme de Rabat et Salé : Notes sur la densité urbaine de Rabat et Salé, Ms. In Vol. LIV, No 1401 (ca. 1947)

2 – Archives de l'Alliance Israélite Universelle
Correspondence Relating to Salé, Dossier No. IV. B (Salé).

3 – Archives de la Marine .
Maroc (1881 – 1893),Schlumberger, « Notice sur la ville de Salé », No. BB 4, 2458, Dossier K, pp. 22 – 24.

4 – Archives du Ministère de la Guerre
Maroc, Serie C, Carton I.

5 – Archives Nationales
Maroc, Serie Marine , BB 4 , 1026, M – 20.
Calderon, S. – Manuel de l'officier dans l'empire du Maroc ou tableau géographique.statistique, historique de ce pays, Ms. Translation from the Spanish édition of 1844 by L. Darmois, May, 1844.

II .مطبوعات

1 ـ أعمال عربية :

ـ ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر بومبي، 1860.

ـ ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، نشر كرامرز وفييت ، باريز، 1964.

ـ ابن خلدون، المقدمة، بيروت ، 1961.

ـ ابن خلدون، كتاب العبر ، نشر دوسلان ، الجزائر ، 1847 – 1851.

ـ ابن زيدان، إتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، 5 مجلدات، الرباط ، 1929.

ـ ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، الدار البيضاء، 1960.

ـ ابن شريفة، أسرة بني عشرة ، مجلة تطوان، ع 10 ، 1965.

ـ ابن عذاري، البيان المغرب ، نشر فانيان، الجزائر ، 1901 – 1904.

ـ البكري، كتاب المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، نشر دوسلان الجزائر 1911 – 1913.

ـ التادلي (يوسف)، التشوف إلى رجال التصوف، نشر فور، الرباط 1958.

ـ حجي (محمد)، الزاوية الدلائية، الرباط ، 1964.

ـ العبادي ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس

الإسكندرية، 1958.
ـ القادري (محمد بن الطيب)، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، مجلدان، فاس، 1892 ، نشر غراي في "الأرشيفات المغربية ج 21 1921.
ـ مجهول، تاريخ الدولة السعدية، نشر كولان، الرباط، 1934.
ـ مجهول، كتاب الاستقصا في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول عبد الحميد، القاهرة، 1958.
ـ الناصري(أحمد بن خالد)،كتاب الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى،4 مـــجلدات، الـــقاهرة، 1894، طبعة ثانية، 9 مجلدات، الدار البيضاء ، 1954 – 1956.

2 ـ أعمال أجنبية:

Abbou, I. – Musulmans, Andalous et Judéo-Espagnols, Casablanca, 1953.
Abun-Nasr, J. – « The Salafiyya Movement in Morocco », in St. Antony's Papers, No. 16, Middle Eastern Affairs, No. 3 , London, 1963.
Anon. – « Notions de pédagogie musulmane », trans. By M. Ben Cheneb in Revue Africaine, XLI (1897).
Ayache, G. – 'La question des archives historiques marocaines », in Hespéris-Tamuda, II (1961).
- « L'utilisation et L"apport des archives historiques marocaines », in Hespéris-Tamuda, VII (1966).
Aubin, E. – Le Maroc d'aujourd'hui, Paris, 1908.
Balthorpe, J. – « The Streights Voyage », in Hespéris, IV (1929).
Baretta, B. – « La toma de Salé en tiempos de Alphonso El Sabio », in Al Andalus, VIII (1943).
Beauclerk, G. – Journey to Morocco, London, 1828.
Bel, A. – La religion musulmane en Berbérie : Esquisse d'histoire et de sociologie Religieuses, I, Paris, 1938.
- « Quelques rites pour obtenir la pluie en temps de sécheresse chez les musulmans maghrébins », in Recueil de Mémoires et de textes, XIV, Congrès des orientalistes, Algiers, 1905.
Berque, J. – Le Maghreb entre les deux guerres, Paris, 1962. English edition, The Maghreb between the two wars, London, 1967.
- « Medinas, villeneuves et bidonvilles », in Les Cahiers de Tunisie, No. 21 – 22 (1959).
- « Quelques perspectives d'une sociologie de la décolonisation », in Les Cahiers de Sociologie, No. 1 (1965).

- « Les débuts réformisme religieux au Maroc », in Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal, II, Paris, 1962.
- « Problèmes initiaux de la sociologie juridique en Afrique du Nord », in-Studia Islamica, I (1953).
- And G. H. Bousquet.-« La criée publique à Fès : Etudes concrète d'un marché »,in Revue d'Economie Politique, LIV-LV (1940-45).
- « Ville et université : aperçu sur l'histoire de l'école de Fès »,in Revue Historique de droit français et étranger, 1949.

Bodman, H. L. – « Political Factions in Aleppo, 1760-1826 », in James Sprunt Studies in History and Political Science, XLV, Chapel Hill, 1963.

Boube, J. – « Fouilles archéologiques à Sala », in Hespéris- Tamuda, VII(1966).

Bousquet, G. H. – L'Islam maghrebin, Algiers, 1944.

CBrignon, J. A. Amine, B. Boutaleb, G. Martinet, B. Rosenberger. – Histoire du Maroc, Casablanca, 1967.

Brunot, L. – La Mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé,Paris, 1920.

- Textes arabes de Rabat, I, Paris, 1931. II, Glossaire, Paris, 1952.

Brunshvig, R. – La Berbérie Orientales sous les Hafsides, des origines à la fin du Xve siècle, 2 vol, Paris, 1940, 1947.

Bulletin du Comité de l'Afrique. – « La population du Maroc », Paris, 1913.

Busson, J.P.– « Frédéric le Play et l'étude du niveau de vie d'une famille d'artisans Marocains il y a un siècle », in Bulletin Economique et Social du Maroc, XVII (1953).

Caillé, J. – Charles Jagerschmidt, Chargé d'affaires de France au Maroc(1820 – 94) Paris, n.d.

- La ville de Rabat jusqu'au protectorat français, 2 vol., Paris, 1949.
- La petite histoire de Rabat, Casablanca, i.d.
- « Ambassades et mission marocaines en France », in Hespéris,XLII (1960).
- and J. Hainut. – « La qasba des gnoaoua », in Hespéris, XLII(1955)

Carcopino, J. – Le Maroc antique, Paris, 1944.
Caro-Baroja, J. – « The City and the Country : Reflections on Some Ancient Commonplaces », in Mediterranean Countrymen, ed. By J. A. Pitt- Rives, Paris, 1963 .
Castellanos, M. – Historia de Marruecos, 3rd ed. Tangier, 1898.
Castries H. de. – « Le Maroc d"autrefois. Les corsaires de Salé », in Revue des Deux Mondes(1903).Ms. copy A.G.R., No. A 4 3378.
- « Les trois républiques du Bou Regreg : Salé – la Kasba-Rabat »,in Sources inédites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845,éd,by H .de Castries.
- « Les moriscos à Salé et Sidi-Ayachi. Introduction critique », in Sources inédites, 1 Série, France, 1911, 187-98.
Chenier, A . – Recherches historiques sur les maurses et l'histoire de l'empire de Maroc, 3 Vol, Paris 1948.
Coindreau , R .- Les corsaires de Salé , Paris 1948
Colin, G – Chrestomathie marocaine , Paris, 1939
-« Mellah. » ,in The Encyclopedie of Islam .
Cotte ,N .- Le Maroc contemporain , Paris 1860.
Cousté , J – Les grandes familles indigénes de Salé , Rabat 1931.
Dans le RPFPP .- Histoire de Barbarie et de ses corsaires , 2nd éd , Paris , 1649.
Dapper , D O ,- Description de l'Afrique, Amestrdame , 1686.
Delphy, A .- « Notes sur quelques vestiges de céramique recueillis à Salé » , in Hespéris , XVII 1955.
Demeersman .A .- « Catégories sociales en Tunisie au XIX siècle d"après la chronique de A. Ibn abi d –diyaf » , in Bulletin de I B L A . N° 117, 1967.
Dunton . J , - A True Journal of the Sally Fleet wit the Proceedings of the Voyage .London , 1637.
Desprez . – « Le bombardement de Salé » , in Revue de l'Orient , de l'Algerie et des Colonies, XIII 1853.
Dye , F .A .H . – « Les ports du Maroc ,leur commerce avec la France » , in Bulletin de la société de Géographie Commerciale de Paris . 1908.
Emerit , M . – « A propos de la caravane de Salé » , in les Cahiers de Tunisie , N° 11.1955.
Encyclopédie d'Outre-Mer, II « Maroc . les Villes »
Fagnan , E . – Extraits inédits relatifs au Maghreb, Alger 1924.
Fourmet , P.et G .Levé , eds , - Les traités du Maroc , I , Paris , 1904.

Gallaher , C . – The United States and North Africa : Morocco , Algeria , and Tunisia , Cambridge , Mass , 1963.
- « A Notes on The Maghreb » , in American Universities Field Staff. North African Series , XIII, N° 6 , 1967.
Gautier , E . – Les siècles obscurs du Maghreb , Paris 1927.
Geertz , C . – « Rituel And Social Change : A Javanese Example » , in American Antropologist, LIX 1957.
Goldziher , I . – Muslim Stidies , 2d , and trans , by . S .M.Stern , London 1967.
Goulven , J . – « Notes sur les origines anciennes des israélites du Maroc » , in Hespéris , I 1921.
- Les Mellahs de Rabat – Salé , Paris , 1927.
Guay , L . – « Forme Féminine berbère à Salé » , in Archives Berbères , III 1918.
Guides Bleus . – Maroc , Paris , 1966.
Guillen , P . – « Les sources européennes sur le Maroc . Fin XIX Debut XX siècle » , in Hespéris – Tamuda , I ,1966.
Halstead , J . – Rebirth of a Nation : The Origins and Rise of Moroccan Nationalism, 1912-1944, Cambridge , Mass.
Hardy , A . – « Les Babouchiers de Salé » , in Bulletin Economique et social du Maroc, V 1938.
Hecht , J J . – « Social History » , in Encyclopedia of the Social Sciences 2 nd éd . London 1968.
Hirschberg . H .Z. – A History of the Jews in North Africa. From Antiquity to our Time (in Hebrew) , 2 Vol, Jerusalem 1965.
Hoffher , R . and R .Morris . – Revenus et niveaux de vie indigènes au Maroc, Sirey 1934.
Houri , A .- Arabic Thought in the Liberal Age , 1798-1939, London 1962.
Jackson , J.G. – Au Account of Timbuctoo und Hausa Territories in the Interior of Africa by El Haje Abd Salam Shabeeny , with Notes Critical and Explanatory. To Which is Added Letters Descriptive of Travels Through West and South Barbary and Acros The Mountains of Atlas , London 1820.
Jeannot , G . – Etude Sociale , politique et économique sur le Maroc , Dijon , 1904.

Julien ,C .A – l'Afrique du Nord en marche : Nationalismes musulmans et souveraintė Française , Paris 1952.
-Histoire de l'Afrique du Nord, 2 vols, 2 nd éd , 1961
Jean-Léon l'Africain . – Description de l'Afrique, trans by A . Epaulard , Paris 1956.
Keatinge ,M . – Travels throug France and Spain to Morocco, London , 1817.
Lahbabi , M . – Ke gouvernement marocain à l'aube du XX siècle, Rabat 1985.
Landau , R . – Moroccan Drama , 1900-1955, San Francisco, 1956.
Lapidus , I . – Medieval Muslim Cities , Cambridge , Mass , 1967.
La Pirmaidie , E , de . – « Villes maritimes du Maroc » , in Revue Africaine 1873.
Laroui , A . – l'Idéologie arabe contemporaine , Paris , 1967.
Le coeur , A . – « Métiers et classes sociales d"Azemmour » , in Bulletin Economique et Social du Maroc, IV 1937.
- Le rite et l'outil , Paris , 1939.
- « Métiers et classes Sociales d"Azemmour » , in Bulletin Economique et Social du Maroc , IV 1937.
Le Coz, J . – Le Charb Fellah et colons . Etude de géographie régionale Rabat 1934.
Légey , Doctoresse .- Essai de Folklore , Paris 1926.
Lempriére , W . – A tour From Gibraltar to Tangier , Sallee , Mogador , Santa crus, Tarudant , and thence over Mount Atlas to Morocco , London 1791.
Lesne ,M . – Evolution d'un groupement berbère : Les Zemmours , Rabat 1959.
Le Tourneau , R . – Evolution politique de l'Afrique du Nord Musulmane 1920-1961,Paris 1962.
- Fés avant le protectorat , Casablanca , 1947.
- Les villes de l'Afrique du Nord , Alger 1958.

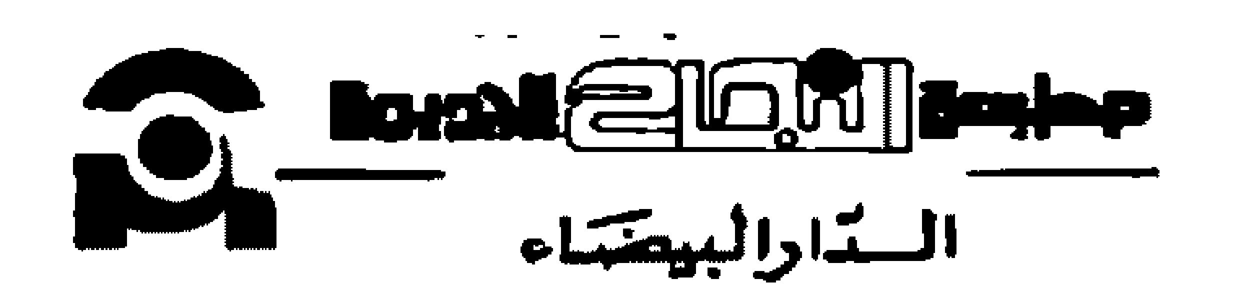
من منشورات أمل

* محمد لفلاح العلوي — جامع القرويين والفكر السلفي
1914-1873

* مجموعة من الأساتذة الباحثين — بيان يناير 1944 بين مطلبيه الاستقلال والديمقراطية

* ألبير عياش — الحركة النقابية بالمغرب
ج 2 مغربة الحركة
ترجمة نور الدين سعودي

* للمهدي الناصري — الرحلة الزاهرة
في أخبار درعة العامرة
تحقيق احمد البوزيدي


مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء